لغة التصوف النسائي

ودوره في بناء الوعي الرشيد

إعداد الأستاذة الدكتورة

اعتماد عبد الصادق عفيفي

أستاذ أصول اللغة المتفرغ

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات السابق- القاهرة – جامعة الأزهر

لغة التصوف النسائي
ودوره في بناء الوعي الرشيد

اعتماد عبد الصادق عفيفي.
أستاذ قسم أصول اللغة السابق، عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات السابق، القاهرة – جامعة الأزهر
البريد الإلكتروني: Eatemadafify.2057@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يهدف البحث من خلال هذه الورقة البحثية إلى التعرف على التصوف النسائي ودوره في بناء الوعي الرشيد وخصصت (النسائي) لأهمية دور المرأة في البناء الأخلاقي المجتمعي، بما تقدمه من أدوار متعددة أما) وأختا وزوجة وأستاذة)، فدورها المجتمعي له أهمية خاصة؛ لذا نرى التوجه للفتك بها؛ لإدراكهم أهمية دورها في السياج الحقيقي لهذه الأمة وكرامتها، وبالتالي أي تأثير سلبي على المرأة مردوده على الرجل والشاب والطفل ويُحدث خللا بل ضياعًا للتربية الخلقية وتدميرًا للكثير من القيم المجتمعية؛ لذا آثرت أن أتناول الأخلاق الصوفية والتصوّف النسائي ودوره في بناء الوعي الرشيد، وانتهجت المنهج الوصفي التاريخي لعرض بعض النماذج النسائية المتصوفة ودورهن في التعليم والتعلم والتربية واتباع القدوة المعتدلة والأسوة لنا في ذلك هو سيدنا رسول الله ﷺ وآل بيته وصحابته وأتباعه، والمنهجية القرآنية هي الفاعلة والفاصلة في توضيح الطريق المستقيم والتغذية المعرفية والعقلية والمهارية والوجدانية.

وقد توصلت هذه الورقة البحثية بعد العرض والدراسة والاستقراء إلى بعض النتائج التي تؤول بنا إلى أهمية الأخلاق الصوفية في صيانة وحفظ المرأة وتحقيق الاطمئنان والسعادة، وبالتالي تساعدها في تحقيق المشاركة في بناء الوعي الرشيد لأسرتها ولمجتمعها، وبالتالي رقي الأمة بمنهجية قرآنية وقدوة نبوية.

وبالرجوع إلى الورقة البحثية نستطيع الاستفادة من النتائج التي توصلت إليها الورقة البحثية وكذلك التوصيات التي تقترحها .

الكلمات المفتاحية: لغة – التصوف – النسائي – بناء الوعي – الرشيد.

The Language of Women's Sufism and its Role in Building Rational Awareness

Eatemad Abdel Sadek Afifi

Faculty of Islamic and Arabic Studies for Female Students, Al-Azhar University, Cairo, Egypt

Email: Eatemadafify.2057@azhar.edu.eg

Abstract:

Women play a vital role in the moral fabric of society, which is why there is often a targeted attempt to undermine them; this stems from an understanding of the importance of their role in safeguarding the true dignity and integrity of the nation. Any negative impact on women subsequently affects men, youth, and children, leading to disruptions—even a breakdown—in moral education and the erosion of many societal values. Therefore, I have chosen to examine Sufi ethics and women's Sufism and their role in fostering rational awareness. I have adopted a descriptive historical approach to present examples of female Sufis and their roles in education, learning, moral upbringing, and following balanced role models. The ultimate example for us in this is Prophet Muhammad (pbuh), along with his family, companions, and followers. The Quranic methodology is the decisive guide in clarifying the straight path, nourishing intellectual, emotional, and moral capacities. This research paper has reached conclusions highlighting the significance of Sufi ethics in preserving and safeguarding women, achieving tranquility and

happiness, thereby enabling them to contribute to building sound rational awareness within their families and communities, and ultimately advancing the nation with a Quranic methodology and prophetic example.

Keywords: language - sufism - feminine – awareness building - rational

المقدمة:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الحمد لله القائل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأصلي وأسلِّم على سيدنا محمد ﷺ القائل: «إنما النساء شقائق الرجال»[(١)]، صلاة وسلامًا عليك سيدي يا رسول الله.

وبعد،،

أحييكم جميعًا بتحية الإسلام، كما أحيي جميع القائمين على هذا المؤتمر الذي يحمل عنوان «**الأخلاق وآليات بناء الوعي الرشيد**»، وأدعو الله أن يوفقنا جميعًا لما فيه نهضة الأمة برجوعها إلى كتاب ربها وسُنَّة نبيها ﷺ، فقد جاء هذا المؤتمر في توقيت هام وفي وقت عصيب على الأمة، وهذا يحتاج منَّا الرجوع إلى الله رجالًا ونساءً شيوخًا وشبابًا، فما التصوّف إلَّا الرجوع إلى الله، وتوثيق الصلة به بكثرة الاستغفار والتوبة، والعمل بما يرضيه، فكل منا مستأمنٌ على ما استرعاه الله وأقامه عليه.

ونحن نرى ما يُحاك بأمتنا أُمَّة سيدنا محمد ﷺ، فتوجهوا للفتك بالمرأة لإدراكهم بأهمية دورها في السياج الحقيقي لهذه الأمّة وكرامتها، وبالتالي أي تأثير سلبي على المرأة مردوده على الرجل والشاب والطفل ويُحدِث خللًا بل ضياعًا للتربية وتدميرًا للكثير من القيم المجتمعية.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم (٥٨٦٩) من حديث أم سليم بنت ملحان.

ونذكر في هذا المقام قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالله عز وجل نَوَّع الناس إلى ذكر وأنثى لتستمر الحياة، فمعيار التفاضل ومقياس الكرامة والعزة، حَدَّده سبحانه وتعالى بالتقوى، ذكورًا وإناثًا، فأينما وجدت التقوى وجدت الكرامة سواء كانت متمكِّنة من قلب رجل أو من قلب امرأة فلا فرق بين امرأة ورجل في هذا المقام، وإنما المقياس الوحيد والأوحد هو في التقوى، فإذا جاهدنا أنفسنا وطهرنا صدورنا وقلوبنا من أمراض القلوب استطعنا تحقيق نهضة أمتنا والتصوف الإسلامي منهجنا الذي به نحقق نهضتنا ببناء وعي رشيد له آلياته التي تمكننا من ذلك بما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية.

وقد خصصت هذه الورقة المتواضعة للتذكير بـــ «**لغة التصوّف النسائي ودوره في بناء الوعي الرشيد**»، بتوضيح بعض المصطلحات الصوفية وبعد تعريفه وبيان مقاصده وهدفه وأصوله، والمنهجية المُتَّبعة لتحقيق هذه الأصول التي بُني عليها التصوّف والمُستمدة من القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة. وليس منا من ينكر دور المرأة أُمًّا وأختًا وزوجة ومعلِّمة ومربية، إلا أن عِظَم دورها ليس بالضرورة أن يكون ظاهرًا عيانًا في الساحات؛ فأمانتهن عظيمة، وحِمْلُهُن ثقيل، خَصَّهُنَّ الله سُبحَانه وتعالى بخصائص هي تاج على رءوسهن، ومن يستقرئ التاريخ يعرف مدى تخصيص الله لهن بحمل هذه الأمانة.

وبالرغم من هذا لم تحرم نفسها من طريق التصوف والعمل بمنهجه القويم، والذي يساعدها في بناء وصناعة الرجال الربانيين على مرّ الزمان والعصور، ودورنا أن نوضِّح منهج التصوف الإسلامي الذي يعالج السلوك ويقوّمه، فالجانب الخلقي يمثل البوصلة التي يسير عليها المتصوف المربي على منهج علمي؛ ليكون هناك توازن بين مسئولية الرجل والمرأة على حد سواء، كلٌّ فيما

يسرَّه الله له وحباه به، سنحقق بذلك نهضة الأمة في جميع المجالات بالمساهمة في بناء وعيها الرشيد لدى النساء.

فإذا تدبرنا القرآن وفقهت الأمة مراداته ودلالاته واتبعنا سُنَّة نبينا ﷺ لخرجنا من حلَق الضيق ولن نضل بعدها أبدًا، لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقول الرسول ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي» [حديث صحيح رواه مسلم عن جابر بن عبد الله].

وما التصوف إلَّا ترجمة حقيقية لمرادات الله في القرآن، واتباعًا لخطى نبينا ﷺ فهو دليلنا، وهو شفعينا، وهو قدوتنا، فالتخلُّق بكتاب الله ومجالسة أهل القرآن أهل الله وخاصته واتباع نبينا ﷺ يجعلنا ربنا من الربانيين، فخيار عباد الله عند الله **الذين إذا رُءُوا ذُكِرَ الله**، فالمتصوفون من يتبعون المنهج بدقة ليصلوا إلى الحقيقة؛ لذا يربون أنفسهم، وتربية النفس لا تكون إلا بتزكيتها ومخالفة الهوى، وزهدها في زخرف الدنيا.

وتحقيق ذلك طريقه العلم، فصاحب العلم حريصًا دائمًا أن يطهر نفسه من المهالك والمخاطر، وقلبه من كل ما يسبب ضرره أو يقوده إلى الفساد بضوء علمه ونوره، ثم يعمر القلب بالصلاح والتقوى، فالقلب إذا وُجد فيه العلم واليقين تواجد الخوف والشوق، فالأول من الهلاك والثاني – وهو الشوق – إلى الترقي في الوصول إلى رضا الله – عز وجل – وهذا هو العالم كما وضحه علماؤنا في قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

فالعلم الصحيح هو الذي يشوّق صاحبه ويقوده إلى الله، للحصول على رضاه، وينجيه من الهلاك الدنيوي والأخروي، وبالتالي يصل هذا العالِم الرباني بنور يقينه في الله إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، فالنفحات الربانية

تمكِّنك أيها العالِم من الأخذ بيد مريديك وطلابك بمنهجية صوفية معتدلة مفادها من الكتاب والسُّنَّة، وطريق التطبيق مليء بالعثرات ويحتاج إلى جهاد النفس، لكي نوظف أخلاقيات التصوف في واقعنا، فاعلم عالمنا الجليل أن مهمتك ليست سهلة ولا هينة، فربطك بين الفكر والقلب بعلمك وبالمناهج الدراسية التي تحقق ذلك تنظيرًا واتباع القدوة تطبيقًا يحتاج إلى التوأمة بين الرواية والدراية.

ونحمد الله أن جعل الأزهر منارة تضيء طرق العلم في شتى البقاع ويقوم على توظيف التصوف في كل المجالات بحسن العرض لمدلول آيات القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ، مستعينًا في الوصول إلى ذلك بالاستفادة من كل المناهج التي تخدم تحقيق هدفه ربطًا بين التراث ومستجدات العصر وإنزال ذلك على أرض الواقع لبناء وعي رشيد يصلح أحوال الأمم.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، ركَّزت مجلة الإحسان على حال أمتنا وما ينتابها من ضعف وهوان وتخبُّط هذه الأيام، وما يقدَّم لهذه الأمة من دعاوى الكفر والإلحاد على أنها حرية شخصية وما تحمله وسائل التواصل من موبقات، وكأن هذا هو الطبيعي، وبالتالي يشعر المسلمون بالغربة عن إسلامهم.

فالواقع التعاملي في وادٍ والسلوكيات والمبادئ والقيم في وادٍ آخر، وفي هذا هدم للأمم والتنازل عن المبادئ والقيم التي هي منهج قرآني لبناء الفرد والمجتمع؛ لذلك كان التصوف الذي يطابق القول للعمل والدين للمعاملة والسلوك للمبادئ والقيم له أهميته؛ لأن التصوف هو حقيقة الإسلام وروحه وذروة سنامه، ولا ننسى أن كل هذا تواصلًا حقيقيًا بالمجتمع والبيئة المحيطة، وبالتالي أخلاقنا هي رأس مال مجتمعنا؛ ولذا نحتاج إلى لغة تواصل تتناسب مع المجتمع والبيئات المختلفة.

فعلينا أن نضمِّن مناهجنا الدراسية ما يعين على صناعة جيل يتلقى العلم المستمد من الكتاب والسُّنَّة والمبني على تزكية النفس والزهد والتقوى واختيار

اللغة التي تتناسب مع الأجيال؛ لنتمكن من التواصل الصحيح والوصول إلى الهدف المنشود، وهو بناء الأجيال على مائدة القرآن لتصلح أحوال الأمة، فإن هذا الجيل هو أمل الأمة في نشر دين الله على وفق ما أراد الله.

وقد اعتمدت هذه الورقة البحثية على المنهج الوصفي والتاريخي، واحتوت على مقدمة ومبحثين وخاتمة ثم ثبت المصادر والمراجع وفهرسة للموضوعات، وهى على النحو التالي:

المبحث الأول: التصوف أصول ومقاصد، وفيه:

- تعريف التصوف لغةً واصطلاحًا.
- بيان الأصول التي بني عليها التصوف.
- منهجية الوصول لتحقيق الأصول التي يبنى عليها التصوف.
- المقام الصوفي .. والحال.
- من المقامات الصوفية.
- التصوف والتربية الروحية.
- المقصود بالتربية الروحية.
- هدف التربية الروحية ودورها في بناء الوعي الرشيد.
- مقاصد التصوف وما يلزم لتحقيقها.

المبحث الثاني: التصوف النسائي ودوره في بناء الوعي الرشيد، وفيه:

- الركيزة المعرفية للصوفية.
- علاقة الحُبّ بين الله وعباده في القرآن الكريم.
- كيف نحقق العمل بالمعرفة القرآنية في التصوف.

أ- تزكية النفس. ب- الزهد في زخرف الدنيا.

- نماذج من المتصوفات من القرن الثاني إلى القرن السابع الهجري.

لماذا يكون التصوّف النسائي من آليات بناء الوعـــي الرشيد؟

١- أن نماذج كثيرة أوردتها المصادر وتناولتها الكتابات من وجهات مختلفة، يأتي على رأسها "رابعة العدوية" ، باعتبارها من أشهر النماذج النسائية التي أثرت في تاريخ الحياة الروحية في الإسلام بنشر الفضيلة وغرس بذور الإصلاح.

٢- أن العرب منذ فجر الإسلام حباهم الله تعالى بالعلماء في مختلف العلوم، وخاصة العلوم الدينية، فها هم أئمة الفقه (الإمام أبو حنيفة والشافعي والإمام مالك وأحمد بن حنبل)، والإمام الصوفي الفذ الإمام الحسن البصري المتوفى ١١٠هـــ صاحب الرؤى العميقة في تطور التصوف والزهد العملي في الإسلام وأثره في الإصلاح الخلقي في بيئته.

٣- بالرجوع إلى أبرز المراجع التاريخية التي أصلت لرموز الإسلام وشخصياته من الرجال والنساء في تاريخ الحياة الروحية وبصفة خاصة (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت ٤٣٠هـــ)، وطبقات الشعراني، وسير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وغيرها) سنجد أن الشخصيات النسائية الصوفية التي أسست لبناء وعي رشيد كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

- آسية بنت أحمد بن عبد الدائم بن نعمة.
- آسية بنت إسماعيل الأعظمي.
- آسية بنت محمد.
- آمنة بنت رفاعي.
- آمنة الرملية.

- حسنة العابدة.
- رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية – التدين عندها «معرفة الله»، وفقه التدين «الفناء في حُبّ الله».
- أزدة بنت الحارث بن كلدة (في الثامن الهجري).
- عائشة بنت المثنى القرطبي.
- رابعة العدوية التدين عندها معرفة الله وفقه التدين (الفناء في حب الله).
- عائشة بنت المثنى القرطبي.
- عجم بن النفيس البغدادية، من متصوفات القرن السابع الهجري.
- ميمونة، أخت إبراهيم الخواص.
- أم أحمد بنت عائشة بنت أبي عثمان.
- عونة النيسابورية.
- أمة العزيز، المعروفة بهورة.
- الوهيطة، أم الفضل.
- ملكة بنت أحمد بن حيويه.
- فاطمة بنت عمران.

ولذا كان من الأهمية أن نركز على ملامح التصوف لدى بعض الشخصيات النسائية خلال فترات تاريخية ممتدة.

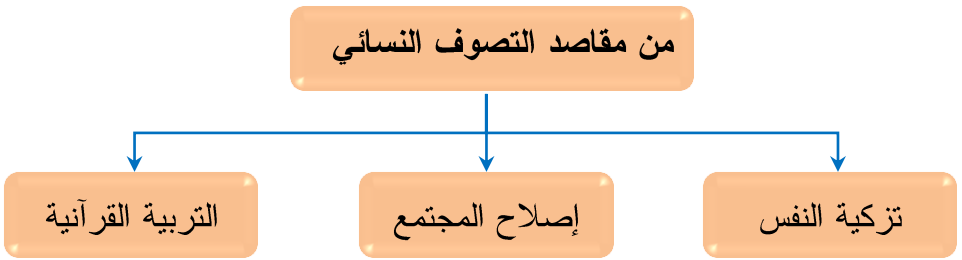

وللتركيز على تجسيد المصالح الإنسانية التي يشير إليها القرآن الكريم نلقي الضوء على مفهوم التصوف عند بعض العلماء، فقد ورد عن أبي حفص النيسابوري رحمه الله (ت ٢٦٤هـ) أن: «التصوف كله آداب – أدب كل وقت – أدب كل حال – أدب كل مقام، فمن لزم آداب الأوقات، بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيَّع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول».

وعند الشيخ معروف الكرخي فإن التصوف هو: «الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق»

التصوف: «ما بدايته إنما الأعمال بالنيات ونهايته أن تعبد الله كأنك تراه»(١).

يقول ابن خلدون في بداية الفصل الذي يعقده عن التصوف في مقدمته: «هذا العلم هو من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من بعدهم – طريقة الحق والهداية – وأصلها العكوف على العبادة، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في الطرف الثاني وما بعده، وضح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة بكم التصوف والمتصوفة»(٢).

الهدف الأساسي عند الصوفية:

هو إصلاح المجتمع المسلم بداية بالأفراد؛ لنشر السكينة والطمأنينة، إقامةً لمجتمع مسلم مترابط تسوده المحبة والأخوة يستمد مبادئه من قيم الإسلام وتعاليمه.

---

(١) الرسالة القشيرية في علم التصوف، أبي القاسم عبد الكريم بن هواز بن القشيري النيسابوري، تحقيق: مصطفى زريق، ص٦٧ وما بعدها.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص٣٢٠، وانظر له أيضًا: شفاء السائل لتهذيب المسائل، ص٣٧.

- فبإحياء الإيمان في النفوس بشتى الوسائل وبمختلف الطرق حتى يستمر إيجابيًا وفعالًا.
- ولقد صرح فضيلة الإمام شيخ الأزهر الشريف أن الإسلام – دين السلام – لأنه دعا إلى التعارف بين الشعوب والتعاون بينها وقَدَّم ضمانات ومبادئ لإقرار السلام العالمي والأصل في علاقة المسلمين هو السلم.
- التصوف جزء لا يتجزأ من التراث العربي الإسلامي من رواد الإصلاح الديني في العصر الحديث [الشيخ محمد عبده] يقول الشيخ محمد عبده: «إنه لم يوجد في أمة من الأمم من يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتربية النفوس وأنه بضعف هذه الطبقة فقدنا الدين».

أخذ الصوفية خطاهم من علم الدراسة فأفادهم العمل بالعلم، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوراثة، فهم مع سائر العلماء في علومهم، وتميزوا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الوراثة، ويراد بها الفقه في الدين قال تعالى في سورة التوبة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الآية: ١٢٢]، فصار الإنذار مستفادًا من الفقه، والإنذار، إحياء المنذر بماء العلم، والإحياء بالعلم رتبة الفقيه في الدين، فصار الفقيه في الدين من أكمل المراتب وأعلاها.

وهو العالم الزاهد في الدنيا المتقي الذي يبلغ رتبة الإنذار بعلمه، فمورد العلم والهدى رسول الله ﷺ أولًا، ورد عليه الهدى والعلم من الله فارتوى بذلك ظاهرًا وباطنًا، روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: « مَا عُبِدَ الله عز وجل بشيء أفضل من فقه في الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه».

التصوف، تصورات دينية انتشرت في العالم الإسلام يُقال بأن أول ظهور له في العراق، فأول مدرسة عُرفت في التصوف الإسلامي ظهرت في مدينتي البصرة

والكوفة، كما ظهر اسم الصوفي في الكوفة، وأول من تسمى به جابر بن حيَّان أو أبا هاشم الصوفي.

والتصوف في حقيقته إيثار وتضحية باللذات والشهوات، وإيثار لما يبقى على ما يفنى تضحية بالعاجل، وإيثار للآجل مجاهدة للنفس ومغالبة لأهوائها، وهو نزوع فطري إلى الكمال الإنساني والتسامي والمعرفة عن طريق الكشف الروحي، أو العلم اليقيني للناشئين عن الإلهام الإلهي والنظر العقلي والرياضة النفسية وبعض الدلائل الحسية(١).

ولا شك أن المقاصد القرآنية تجسِّد المصالح الإنسانية كما يقصدها منزِّل القرآن الكريم جل جلاله، وهذا ما يسعى التصوف إلى تحقيقه، فمن المقاصد القرآنية التي يركز عليها التصوف، البُعد القيمي للأحكام القرآنية وهو من أهم ما يميز المقاصد العملية؛ لأنها ترتكز حول مفهوم مكارم الأخلاق لقوله ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، وحينما سئلت السيدة عائشة ڤ عن حاله قالت: «كان خلقه القرآن».

كما ذكر الشيخ الشاطبي في موافقاته قوله: «الشريعة كلها تخلُّقٌ بمكارم الأخلاق»(٢)، وذكر الكثير من العلماء أن الصلاح هو رأس القيم الخلقية، كما ذكر أستاذنا الدكتور العلواني أن (التزكية) قيمة من القيم الأساسية التي تتمحور حولها المقاصد العليا للقرآن الكريم، والتي تمكننا من إعمار الأرض بوعي رشيد مناطه من منهجية قرآنية.

فنهضة الأمَّة وصلاحها الركيزة الأولى لتحقيقهما الأخلاق؛ لأنها تعتمد عقديًا في تأسيسها على خمسة مقاصد مفصلية: الاستدلال بالاستقراء، والتنزيه، والشمول، والتعليم والتوسط.

---

(١) رياض الأدب الصوفي، علي الخطيب، ص٨٧. التصوف في الدولة العباسية خلال القرنين الثاني والثالث الهجري، دوارة هاجر، ص٦٦-٦٩.
(٢) الموافقات للشاطبي، ٧٧/٢.

المبحث الأول

التصوف أصوله ومقاصده

تعريف التصوف -الصوفية- لغةً واصطلاحًا:

- سبب التسمية:

يقول أبو نصر السراج الطوسي المتوفي عام ٣٧٨هـ، وهو صاحب كتاب (اللمع) أقدم كتاب عربي في التصوف تسميتهم بهذا الاسم نسبة إلى ظاهر اللُّبْسَة، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء وشعار الأولياء والأصفياء، فالصوفية في نظر ابن السراج إنما سموا صوفية نسبة إلى اللباس الذي اتخذوا منها شعارًا أو رمزًا وهو لباس الصوف. لأنه كان دائمًا دأب الأنبياء والصالحين، كما تدل على ذلك الأخبار والروايات، فقد أُثر عن النبي ﷺ كان يلبس الصوف تواضعًا وبُعْدًا عن الرياء وزهدًا في الدنيا.

وقال ابن خلدون في مقدمته نقلًا عن القشيري قوله: «ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي. وكذلك من الصوف. قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف وَهُمْ في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف»(١).

وبالرجوع إلى الدلالات الاشتقاقية لكلمة التصوّف على صوفيًا فكلمة صوفيًا الدالة على الحكمة مستبعدة في هذا النطاق المعجمي؛ لأن كلمة صوفي التي تحيل على العقل والمنطق تتناقض الذوق والوجدان، والتصوف كذلك بعيد عن كل انشغال حسي وعقلي وذهني ويميل إلى التجربة الشخصية الباطنية.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ط٤، ص٤٦٧، ٤٦٨.

وإذا أردنا الربط بين المصطلح (التصوف) وبين ما كان عليه نبينا ﷺ، نجد في زهده ﷺ ولبسه الصوف نجد فيه بغيتنا. فقد ورد في قول أنس فيما رواه ابن ماجة: أن الرسول ﷺ: «أكل خشناً ولبس خشناً، لَبِسَ الصوف واحتذى المخصوف». ولم لا وهو قدوتنا صلوات ربي وسلامه عليه، فالتصوف كمدلول فعلي مما حثنا عليه ﷺ، ومنهجيته ﷺ هذه التي تربط بين الزهد والاستمتاع بالحياة حتى نوازن بين ما خلقنا الله من أجله وبين إعمار الأرض كما هو مراده سبحانه لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

وها هو شيخنا الحسن البصري يقول: «أدركت سبعين بدريًا كان لباسهم الصوف»(١). وقد ورد في الحلية لأبي نعيم: أن النبي ﷺ واسى أهل الصفة ولم يكن عندهم غير جباب الصوف [الحلية ٣٤/١].

وقالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها وقال بشر بن الحارث الملقب بالحافي، مات ببغداد عام ٢٢٧هـ. الصوفي: من صفا قلبه – وقال بعضهم الصوفي: من صفت لله معاملته فصفت له من الله كرامته، سموا صوفية: لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل لارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه(٢).

التصوف اصطلاحًا: «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزاهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه والانفراد في الخلوة للعبادة»(٣).

---

(١) العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ط ١، ص٢٢٥، ٢٢٦.
(٢) التصوف والثورة الروحية في الإسلام، د. أبو العلا عفيفي، ص:٣٠، ٣١.
(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٦٧. وقارن: أحمد أمين في ظهر الإسلام، ص١٤٩.

الأصول التي بني عليها التصوف:

١- تقوى الله في السر والعلن بالورع والاستقامة.

٢- اتباع السنة في الأقوال والأفعال بالتحفظ وحسن الخلق.

٣- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار بالصبر والتوكُّل.

٤- الرضا عن الله في القليل والكثير بالقناعة والتفويض.

٥- الرجوع إلى الله في السرّاء والضراء بالشكر الدائم.

منهجية الوصول لتحقيق الأصول التي يبنى عليها التصوف:

١- علو الهمة. ٢- حفظ الحرمة.

٣- حسن الخدمة. ٤- نفوذ العزيمة.

٥- تعظيم النعمة.

لكي نصل إلى ذلك يقول ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): «أن التصوف يدل دلالة واضحة على معاني متعددة وأحوال الصوفية واهتمامهم، وهو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور ومال وجاه والانفراد عن الخلق في خلوة للعبادة»[١]، كما سبق في تعريفه الاصطلاحي.

المقام الصوفي ... والحال:

منازل روحية[٢] يمر بها العابد الذي يسلك الطريق الصحيح لأجل رضى الله عز وجل.

---

(١) تاريخ الأدب في العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، ص١٠٧. وانظر: شفاء السائل لتهذيب المسائل، ابن خلدون، ص٤٣.

(٢) الروحية: يقصد بها تعلق القلب برب العالمين والتقوى، فالمقام: ما يقوم به الإنسان بإرادته، والحال: شيء لا إرادي يمر به الإنسان (حب – خوف – رجاء ..).

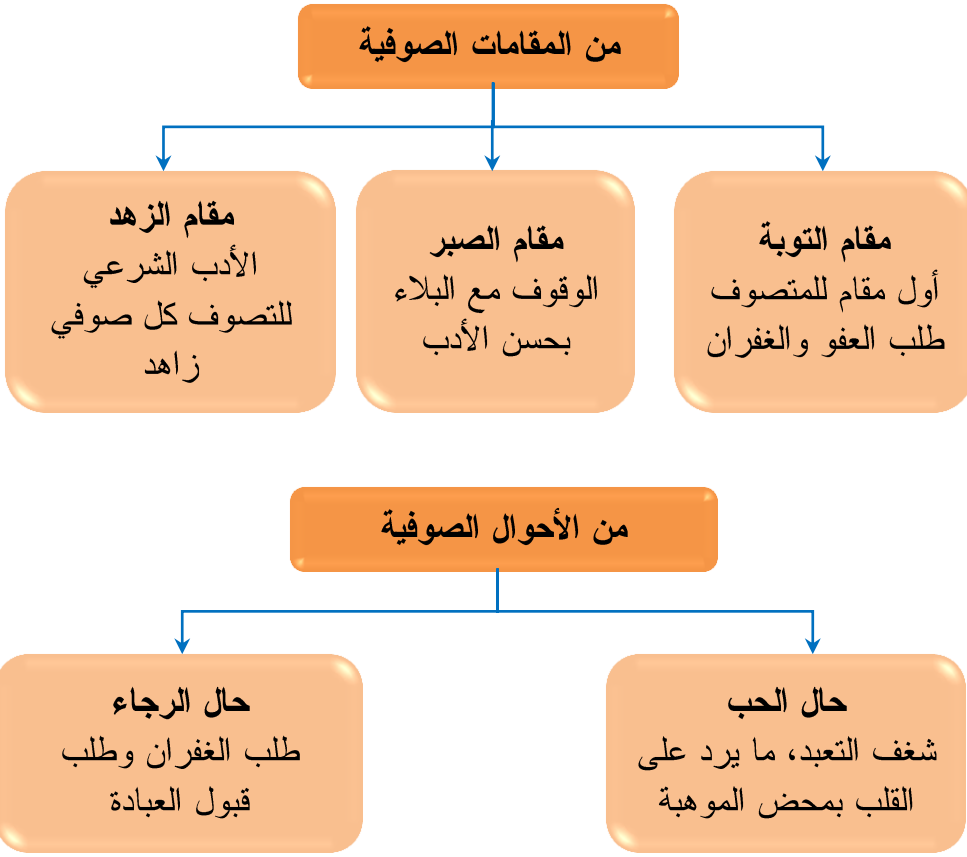

وهناك من الأحوال ما يرغبنا ويثير شغفنا في التعرُّف عليها، ولكن نكتفي بالتنويه عنها هنا لكثرة ما بُسِطَ فيها من أقوال، فمن الأحوال: (المقاربة – الخوف – الشوق – الأُنس – الطمأنينة – المشاهدة – اليقين)، فمن أراد الاستزادة فليرجع من المصادر الصوفية ففيها الكثير من المعارف المقتبسة من الكتاب والسُّنَّة وأحوال السابقين[١].

(١) اللمع في التصوف، الطوسي، ص٦٨-١٠٤. وقارن: معجم المصطلحات الصوفية، عبد الرازق الكاساني، ص٤٦١، وقوت القلوب، أبو طالب علي، ١٧٦/٢.

التصوف والتربية الروحية:

هي التربية التي تتعلق بالروح أو النفس، كون الروحية في التعليم هي التقرب لله تعالى، فهو مفهوم عند الناس منذ قديم الزمان. وهدف التربية الروحية لتغذية القلب والعقل حتى تكون المواقف والأخلاق محمودة ربانية، وتكون هي المثل الأعلى في التربية الروحية، هو روح نظام التعليم الوطني، لكي يكون المتخرجين في مؤسساتنا التعليمية لا يزالون متمسكين بقلبٍ سليم وعقل صحيح.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن التخلُّق بالتصوف يرتقي بالمرأة ويجعلها قادرة على القيام بأعمالها براحة نفسية وطاقات إيجابية، تنعكس على نجاحها في أعمالها من تربية أبناء وقيادة بيتها وخروجها للعمل الذي يناسب طبيعتها الفطرية والمهارية والمعرفية التي حباها الله بها.

وبالاستقرار في هذا المجال وجدنا أن المرأة المسلمة قد سجلت حضورها داخل التيار الصوفي أكثر من حضورها داخل الفقه؛ لأن الأول كان أكثر تقبُّلًا لها في حسن استبعدها علماء الفقه في كثير من الأحيان.

وقد اعتمدت المرأة المتصوفة على معايير معرفية موثوق بها منبثقة من الكتاب والسُّنَّة واتباع القدوة، فهي تؤمن أن وراء إدراكات الحس واستدلالات العقل منهجًا آخر للمعرفة الحقيقية هو (الذوق)، وهذا المصطلح يُطلق عند الصوفية على معرفة الله عز وجل معرفة مباشرة تكون بلا حس ولا عقل، وإنما هي عبارة عن نور يقذفه الله بتجليسه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل.

ولذلك نشأ عند المتصوفة التفكير الرمزي، ويقصد به، ذلك التفكير المبني على الصوة الإيحائية خلافًا للتفكير المنطقي المبني على المعاني المجردة.

فاستخدام الأسلوب الرمزي في التعبير؛ إنما يقوم على توصيل الفكرة إلى المتلقي عن طريق الإيحاء أو التعبير غير المباشر، والذي يطلع على مؤلَّفات

الصوفية وأقوالهم يستطيع أن يتبين بسهولة كيف أنهم استخدموا الأسلوب الرمزي، فعبارات الصوفية عادة ما يكون لها معنيان: أحدهما يستفاد من ظاهر الألفاظ، والآخر يُعرف بالمعنى الباطني.

ومن أهم الأسباب للجوء للرمز الأسلوبي عند الصوفية[١]:

أ- لطافة المعنى؛ حيث إذا بلغ المعنى الغاية من اللطافة، أثر على الشعور الإنساني حتى أصبح يحس هذا الشعور، لا يستطيع إبراز المعنى طبقًا للحالة التي عُنيت له في داخله؛ وذلك لتعذر العبارات الظاهرة وعدم إسعافها لصاحب الوجدان المفعم بالمعنى الدقيق.

ب- حفاظًا على أسرارهم من أن يطلع غيرهم على أحوالهم مع الله.

جـ- اختلاف أحوال الصوفية ومذاقاتهم.

- **المقصود بالتربية الروحية:**

زراعة حب الله عز وجل في قلوب الطلاب وذلك بالالتزام بفعل أوامره والبعد عما نهى عنه.

رأى الشيخ الغزالي أن التربية الروحية عملية إنسانية تجعل الإنسان منذ أول خلقه إلى نهاية حياته يعيش بروح ونفس سليمة من خلال مجموعة متنوعة من المعرفة في شكل تعليم تدريجي حيث العملية التعليمية هي مسئولية الآباء والمجتمعات المحلية نحو القرب من الله عز وجل حتى يصبح رجلًا كاملًا.

هذه التغذية المتوازنة بين المعارف والمهارات تشارك في بناء وجدانيات تمنح السعادة لصاحبها؛ وأهم ما يسعى إليه المتصوف أن يكون سعيدًا وسعادته لا تُكَوَّن إلَّا على عمق الصلة بينه وبين ربه، فمن شرط السعادة أن تكون ميول النفس كلها راضية مرضية، وأن يكون رضاها بما حصلت عليه من الخير تامًا

(١) التصوف الإسلامي، أصول وتطوراته، د. إبراهيم زكي، ص٥٥.

ودائمًا، ومتى سمت السعادة إلى مستوى الرضا الروحي ونعيم التأمل والنظر أصبحت (غبطة) وإن كانت هذه أسمى وأدوم.

ويمكن القول على وجه العموم: أن الطمأنينة والسعادة إنما هي خاصية مميزة لكل أنواع التصوف، فالتصوف يهدف إلى ضبط الشهوات وإحداث لون من التوازن النفسي عند الصوفي، الأمر الذي يجعله متحررًا من كل مخاوفه شاعرًا براحة نفسية عميقة وطمأنينة تتحقق معها سعادته، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه السعادة لدى الصوفية يمكن أن تحدث نتيجة الفناء في المطلق والمعرفة به.

كما أن معرفة الحقيقة بالله تعالى تجعله بحسن التوكل على الله بل يتوكل عليه حق التوكل، وبالتالي يستطيع بذلك الوصول إلى راحة نفسية عميقة(١)، وهؤلاء الذين يصلون إلى هذه الراحة النفسية يعتمدون في سلوكهم التصوفي المنهج التجريبي في الأخلاق بالرغم من أنها تجربة خاصة لا يمكن أن تعمم أحكامها، فالصوفي يعيش في تجربته أحوالًا يستغرق فيها بالكلية لشدة الوجد الذي يسبب له ذهولًا عن كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، فالتجربة الصوفية هذه مليئة بالمعاني والمبادئ الأخلاقية إلا أنها تجربة ذاتية(٢).

وبما أن ورقتنا البحثية حُدِّدَت بالتصوف النسائي نرى لُغَتَها ورموزها تختلف عن لغة التصوف الرجالي، لما يتميز به كل منهما من وجدانيات فطرية، تتوهج عن الخطر المعتمد على النزعة الروحية التي تعتمد على الإيثار التضحية بالذات والملذات والرغبات، وبالحصول على الباقي وليس على الفاني.

وخاصة أننا في زمن تنمت فيه النزعة المادية والميول الفردية والتي لا تراعي القيم الإسلامية ذات البُعد الإنساني في الجوهر، هذا من ناحية، ومن

(١) طبقات الصوفية، السلمي، ص٣٤٣.

(٢) قوت القلوب، أبو طالب المكي، /١٨٧.

ناحية أخرى، اتهم الكثير مجال التصوف بأنه يهتم بالجانب الأخلاقي والروحي وتربية النفس دون أن يكون له أي صلة بواقع الحياة، أو بعبارة أخرى، أن التصوف مثالي لا يمكن تطبيقه على أرض الواقع؛ لأنه غير صالح لتنظيم إدارة الحياة المعروفة بتلونها وتشابكها، وغير فاعل في المجتمع وغير مشارك في هموم ومشاكل الناس.

ومن الممكن الرد على ما سبق بأن رسولنا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه أفضل المتصوفين والمتعبدين وكذلك صحابته الكرام، فالطاقة التعبدية كانت تجدد لديهم الرغبة الشديدة في العمل والإنتاج، وإلَّا لما كان توجه النبيﷺ لمن يجلس في المسجد للتعبد وسأله ﷺ: «من يوفر لك المطعم والمشرب»، قال: أخي، فكان رده ﷺ: «أخوك أعبد منك»، والأخبار الواردة في هذا الشأن كثيرة في مصادرها.

فتزودنا بالمنهجية القرآنية النبوية تأخذ بنا إلى بَرّ الأمان وتحقق الهدف وتُقَوِّم السلوك وتربي النفس كما هو مراده تعالى، فصلاتنا إن لم تكن ناهية لنا عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة لنا، وبالتالي ينعكس تعامل المصلي ومراقبته لذاته ولربه فيما أسند إليه من أعمال هو في الحقيقة قمة التصوف الذي يُقْصَدُ به إعمار الأرض والرقيّ بالبشرية عن نطاق المادية إلى نطاق الربوبية، والمتصوف في كل عصر من العصور ذو ثقافة عالية، ولا يوجد من العلوم إلَّا وكان له رسم فيها.

والفراغ الروحي الذي يعاني منه الإنسان اليوم يكمن في ضبط النفس وتزكيتها والارتقاء بروحه إلى مدارج الكمال، وبالتالي يتحقق الوجود الإنساني المتوازن إلا من خلال تبني منهجًا ربانيًا يستهدف بناء الفرد أولًا ثم إصلاح المجتمع وتنميته.

ولا ننسى مهمتنا في توضيح دور التصوف في الوقت المعاصر والعمل على نشر الوعي بحقيقة الخطاب الصوفي ومضمونه الروحي والأخلاقي والاجتماعي، بالإضافة إلى أن المجتمع في حالة ماسة لعديد من قيم التصوف في تحقيق الأمن الفكري والاجتماعي.

وكذلك توضيح منهج المتصوفة وخصوصًا أن هذه الفئة من المجتمع تتمتع بقبول اجتماعي واسع من الفئات الاجتماعية والاقتصادية؛ لأن منهجهم يقوم على الإصلاح والمصلحة العامة وتحقيق منافع الناس، وهذا تلبية لقول النبي ﷺ فيما رواه أبو داود في كتاب السنن: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1] صدق رسول الله ﷺ.

وعليه فإن التصوف علم وعمل؛ لأنه يستهدف سلوك المرء وعمل يُرَى مشهودًا في أخلاق الناس، فالتصوف كما يرى الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) في كتابه (روضة الطالبين وعمدة السالكين): «التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على الطلب، ويختم بهبة الله كل حسب اجتهاده ورغبته في القرب من الله عز وجل، وهذا متحقق فيما أظهره أهل التصوف رجالًا ونساءً من معانٍ متباينة للحب والتسامح والمعرفة واللغة».

وقد ظهر دور اللغة التي هي الداعم الرئيس للرقي بالمعاني التي يقصدها أهل التصوف، فيما ظهر من وجدانيات النساء بفطرتهن الربانية والتي تختلف نسبيًا عن وجدانيات الرجال، وأبان عن ذلك اختيارهن للكلام والعبارات والجُمل التي تعبر عما يردن من الاستغراق الوجداني في التعبير عن الحُب الإلهي والتوجه إلى الله بطلب العفو والفتوح.

---

(١) باب ما يذكر في القرن المائة، رقم الحديث (٤٢٩١).

- **هدف التربية الروحية ودورها في بناء الوعي الرشيد:**

رأي الدكتور/ علي عبد الحليم محمود في كتابه (التربية الروحية) أن الهدف من التربية الروحية، هو تسهيل السُبُل للطلاب والدارسين لمعرفة الله والتدريب على القيام بعبادة الله ومعرفة ما أمرنا الله وما نهانا سبحانه عنه.

فالتربية الروحية تربط الناس بخالقهم؛ لذا يجب أن تكون التربية الإسلامية قادرة على لمس الجوانب الروحية للمتعلم.

- وضح الإمام الغزالي الهدف من التربية الروحية هو التقرب إلى الله تعالى ورفع الوعي الذاتي بتنفيذ العبادات التي وردت في الكتاب والسنة المطهرة.
- دراسة بعض الأبواب من السنة النبوية للتعرف على الرسول القدوة وسيرته العطرة.

تعتمد الأساليب الروحية التي تتبعها الصوفية في التربية والتعليم على عدة أُسس منها:

١) التركيز على تربية الذات والتنمية الروحية للفرد.

٢) التركيز على القيم الإسلامية السامية وتعزيزها في الأفراد.

٣) التأكيد على العدالة والإنصاف في التعامل مع الناس والدعوة إلى الإحسان والإكرام للآخرين.

٤) تعليم الفرد أن يعيش حياته بطريقة صحيحة ومبتعدة عن الشهوات والأنانية.

٥) إيجاد بيئة تعليمية صحية وآمنة للأفراد لتمكينهم من النمو والتطوير الروحي.

٦) نبذة عن المنهج الصوفي والصلاة والذكر وغيرها من أساليب الاقتراب من الله تعتمد هذه الأساليب على أساس التنمية الروحية.

فإذا كان التركيز على صناعة الشباب والفتيات على هذه الأُسس لنهضنا بأمتنا نهضة شاهدة ومشهودًا لها على مر العصور.

ومن أراد أن يستقرئ عن منهج المتصوفين ليكتشف له الفتوحات الربانية لمن وصفوا بالصدق والإخلاص من عباده فليرجع إلى كتاب عيون الحقائق للشيخ الجليل محمد وفا الشاذلي فقد تناول فيه حديث النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، فعلى قدر ارتقاء همة العبد في نيته يكون ارتقاء درجته عند المطلع على سريرته سبحانه وتعالى، ولشيخنا ڤ قول مشهور يقول: «إنما كانت العلل والأسباب لوجود البعد والحجاب»، ومن استفاء قلبه يتعلم أن الخضوع لرب الأرباب حتم لازم للعبد من غير العلل»[١].

- **نستعين بالله ونرتقي بحياتنا:**

يقول الإمام الشافعي في مُكْثَةٍ نحو عشر سنين وأنا بين خاطرين، خاطر يدعو لي إلى طريق الفقهاء وآخر يدعوني إلى طريق الفقراء. فاجتمعت برجل من أولياء اليمن، فكاشفني وعرف ما في قلبي، وقال رضا الله يا ولدي مبتدأ الفقير نهاية الفقيه؛ لأن مبتدأ الفقير الفقر عن كل شيء، والإخلاص لله تعالى في جميع عباداته ولا يطلب منه عِوَضًا على عبادته، وهذا نهاية الفقيه ثم يترقى الفقير في درجات القرب والمواهب ثم قال: أحببت إني أريك شيئًا من ثمرة العلم الذي تريده وثمرة الفقر له هو الفقه وطريق الفقهاء[٢].

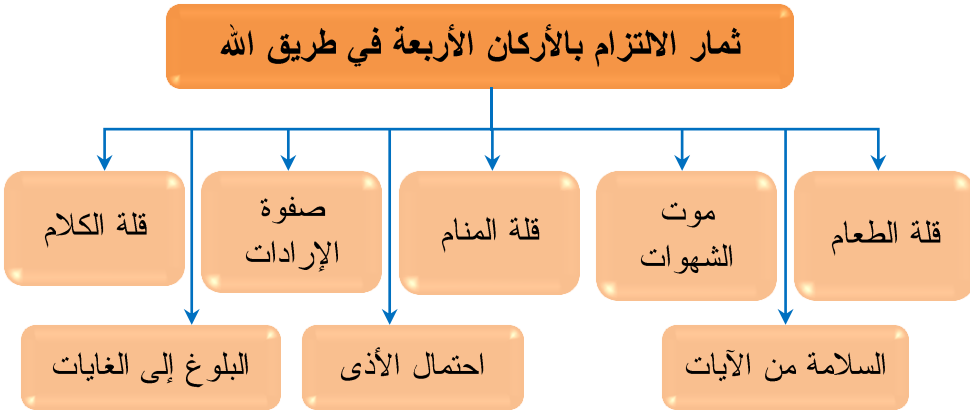

(١) الشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن الشعراني الأنصاري، لوائح الأنوار في طبقات الأخيار، الطبقات الكبرى للشعراني، ص١٦٤.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي.

مقاصد التصوف وما يلزم لتحقيقها:

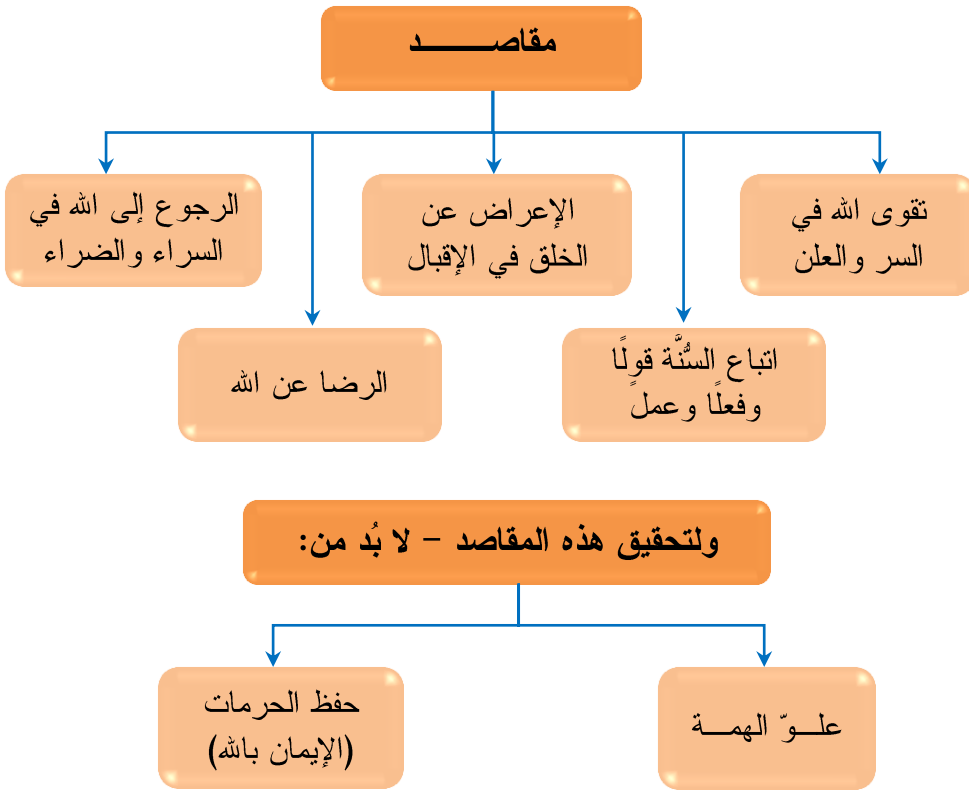

وبالتالي يصلح الله بالنا.

- **شروط صلاح البال:**

عمل الصالحات – العمل بتعاليم ما نزل على سيدنا محمد ﷺ بشكل فعلي (أصلح الله خاطرك وتفكيرك وقلبك وعقلك).

مما سبق يتضح لنا أن التصوف يعني تربية الفرد والمجتمع والارتقاء بالسلوك والوجدان؛ لتحقيق الكمالات الإنسانية وكذا نشر الوعي بمبتدأ الاستخلاف في أرقى مراد به، لحيازة خيري الدنيا والآخرة.

يمتلئ التصوف بالأسرار الغامضة، لذا يحتاج إلى لغة قادرة على نقل تلك المعاني وتأويلها وربما محاولة الإفصاح عنها وعن مكنونها.

المبحث الثاني

التصوف النسائي ودوره
في بناء الوعي الرشيد

الركيزة المعرفية للصوفية:

إن القرآن هو المصدر الأساسي والمرجع الأول للأحكام والعقائد والأخلاق في الإسلام، فقد وجه القرآن الكريم خطابه للنوعين معًا دون تمييز عند التأسيس لقضايا الإيمان الكبرى الخاصة بالمسئولية والتكليف والعهد والابتلاء والجزاء والعقاب: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ولا نرى دور بارز في التصوف البنَّاء للمرأة إلا كمعلمات وشيخات العلماء فحضورهن الفاعل في المدارس العلمية.

علاقة الحُبّ بين الله وعباده في القرآن الكريم:

وقبل أن نذكر النماذج نستقرئ معًا التوجيه الإلهي الذي نجد صداه في طبيعة العلاقة الخاصة التي تربط الفرد المؤمن بالله كما تربطه بجماعة المؤمنين.

فالعلاقة الإيمانية في ذاتها غنية ومركبة الأبعاد بين الإجرائي والمعنوي والجزئي والكلي والعام والخاص، الأمر الذي نلمسه مثلًا حين نتناول – ولو بشكل سريع موجز – **علاقة الحب بين الله وعباده.**

كما تبينها آيات القرآن في غير موضع: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، إن علاقة الحب الخالص بين الله وعباده المؤمنين قضية واقعة كجزء من القضية الإيمانية يتجاوز مجال الأحكام والأوامر والنواهي وإن خالطه، وإن تتبعنا في القرآن

الكريم تعبيري ﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ - ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ نجده يحمل دلالة لافتة للانتباه، فقد جاءت فـ ﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ تسع فئات من المؤمنين هم (المحسنون والتوابون والمتطهرون والمتقون والصابرون والمتوكلون والمقسطون والمطهرون) وتختص صفة المحسنين بالتكرار الأكبر، إذ تكررت خمس مرات تليها صفة المتقين والمقسطين التي تكرر كل منهما ثلاث مرات.

والصفات التسع مع التكرار تعبِّر في معظمها أساسًا عن علائق خاصة بالله. لها تطبيقاتها الاجتماعية، ويجيء (الإحسان) وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك..» الحديث، على رأس هذه العلائق ومعه التوبة والتقوى والطهارة والصبر والتوكل والعدل.

في المقابل السلبي: ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ تسع فئات أخرى هم (المعتدون والمفسدون والكافرون والظالمون ومن كان محتالاً فخورًا والخائنون ولا يحب الله الجهر بالسوء ولا المسرفين ولا المستكبرين ولا الفرحين)، وتجيء هذه الصفات بترتيبها في المصحف ويتماثل تكرارًا الخمس الأول منها، فيتكرر كل منها ثلاث مرات، وهي كصفات سلبية ينصب أذاها مباشرة على المجتمع بين البشر بعضهم البعض.

ويجيء إثبات الحب ونفيه لهؤلاء وأولئك في ذاته كنوع من المثوبة والعقاب النفسيين المعنويين بحيث يتمثل هذا الجزاء النفسي في قلب العلاقة الخاصة بين الله والفرد المؤمن في النفس والقلب[١]، فلندرك مراد الله في منهجه القرآني حتى

(١) المرأة والحضارة، ص٥٧، من منشورات جميعة دراسات المرأة والحضارة، حوار مع د. طه العلواني، القرآن ونظرية الأخلاق عند المرأة، وقارن المرأة في القرآن، هند مصطفى.

نصل إلى التصوف الإيجابي، فما أعظم لغة القرآن في بيان صفة الحب والمحبين، والتعبير عن لغة الحب في قوله ﴿ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ و﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾.

عجم بنت النفيس البغدادية (ت ٦٨٦هـ): تقول عن أميتها «وحيث عَلِمَ الله أني امرأة عامية أمية بريئة عن التصرف في كل ما ينطبق عليه اسم العلم الظاهر، حتى عن الكتابة وما ترقمه الأقلام، فهيأ لي صاحبًا عارفًا بأحكام الخط ومعانيه وما يُصَاغ منه وسيلة للمعاني. فعندما يلقي الله تعالى في قلبي شيئًا من العبارة والفيض أستنجد به استنجاد مُخَالَلَةٍ وأدعوه إلى إثبات ما يرد وهو محمد بن خالتي ورب بيتي».

لها ثلاثة كتب [شرح المشاهد – كتاب الختم – كشف الكنوز] فمعرفتها نتجت عن سبيلين: الأول هو الإلقاء الإلهي في القلب، والثاني هو الشهود.

كيف نحقق العمل بالمعرفة القرآنية في التصوف:

ولكي نحقق العمل بالمعرفة القرآنية قولًا وفعلًا وعملًا (روايةً ودرايةً) ولكي نجني ثمرة التصوف نحتاج إلى ما يلي:

أ- تزكية النفس وما تدور حوله. ب- الزهد في زخرف الدنيا.

أ- تزكية النفس وما تدور حوله:

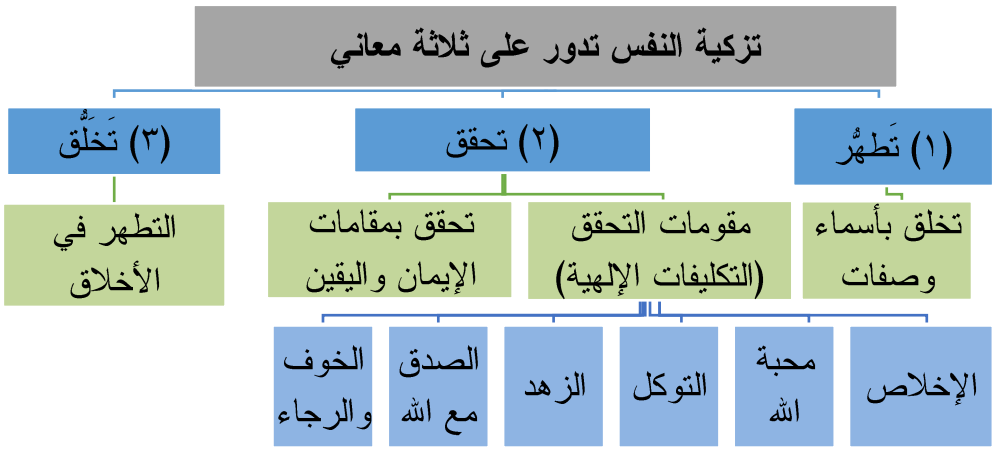

التقوى والورع والشكر والصبر والتسليم والرضا المراقبة والمشاهدة [الإحسان]، التوبة المستمرة.

مقام التخلق العمل ويساعد على هذا المقام، هو الأخذ بأسماء وصفاته قدر الإمكان حقيقة أو مجاز من الحديث «اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك..، مما يدل على أن أسماء الله الحسنى كثيرة فلا شيء يساعد على التخلق مثل العلم والذكر، ففي الحديث القدسي الصحيح وأنا معه إذا ذكرني» أخرجه البخاري ومسلم.

وبقدر ما تكثر من الجلوس مع الله يكرمك الله عز وجل بالارتقاء وبقدر ما يعطيك من العلم يمكنك أن تضع كل شيء في كله، وكذلك التخلق بالاقتداء بالرسول ﷺ عملًا وفعلًا وقولًا قدر الإمكان وحسب كل من أراد القرب وتحقيق مقام القرب(١).

يقول ابن قيم «المحبة شجرة في القلب عروقها الذل للمحبوب، وساقها معرفته وأغصانها خشيته، ورقها الحياء منه وثمرتها طاعته، مادتها التي تسقيها ذكره، فمتى خلا الحب عن شيء من ذلك كان ناقصًا» وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه فأخبر أنهم أشدُّ حبًا لله، فقد روى البخاري في صحيحه [البخاري "٦١٣٧" وأحمد ٢٥٦/٦] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «من أهان لي وليًا، فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بِمِثْلِ أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحببتُهُ

(١) روضة المحبين نزهة المشتاقين، ص٥٥٤، ابن قيم الجوزية، الإمام شمس الدين بن عبد الله بن أبي بكر الزرّعي الدمشقي، (٦٩١ – ٧٥١ه) تحقيق أحمد خليل جمعة

كنت سمعه الذي يسمع به، وبَصرَ الذي يُبْصرُ به، وَيَدَهُ الذي يَبْطشُ بها وَرِجْلَهُ التي يمشي بها، فَبِي يَسْمَعُ وبي يُبصرُ وَبي يَبْطِشُ وبي يَمْشي، وَلَئِنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَهُ، وَلَئِنْ اِسْتَعَاذ بي لأعيذنه، وَمَا ترددت عن شيء أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن قَبض نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمن يكره المَوْتَ وَأَكْرَهُ مساءته، ولَا يُدَّ لَهُ منه»(١).

وهذه هي الدعامة الأولى التي يقوم عليها التصوف الإيجابي، الذي يشارك في النهضة بالأمة، وهاك الدعامة الثانية.

ب- الزهد في زخرف الدنيا:

ورد في الحكم العطائية في الحكمة الخامسة والأربعين: «ما قِل عمل بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ زاهد ولا كَثُرَ عمل بَرَزَ مِنْ قَلْبٍ راغب»(٢).

- **ماهية الزهد:**

لغة: الزهد والزَّهادة في الدنيا ولا يقال الزهد إلا في الدين خاصة والزهد: ضد الرغبة والحرص على الدنيا والزهادة في الأشياء كلها: ضد الرغبة الزهد.

اصطلاحًا: عزوف النفس عن الشيء واستصغار الدنيا واحتقارها(٣).

وقد جاء في الحكم العطائية، أن عزوف النفس لا يستلزم الابتعاد عنه، فبعزوف نفس المؤمن عن الدنيا معناه عدم التعلق والحب للدنيا وما فيها من زخرف.

فالإنسان يأخذ من الدنيا ما هو ضروري لمعيشته كما يَسَّر الله له فيعمر بيته ويمشي في مناكب في مكالب الأرض بحثًا عن الرزق، يتعب ويبحث عن أسباب الراحة التي منحه الله إياها دون إطلاق العنان للنفس في رغباتها وعواطفه يرشدها واهتماماته يحددها.

---

(١) حلية الأولياء ٣٧/١٨، ٣/٩ باب شعب الإيمان ٢٦١/١.

(٢) الحكم العطائية، شرح وتحليل: د. محمد سعيد البوطي، ص٧.

(٣) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني.

وقد ربى النبي ﷺ أصحابه على أن تكون أفئدتهم مطهرة من حب الدنيا بكل مظاهرها المتنوعة، فالزاهد من أهم الصفات التي يجب أن يكون عليها المؤمن، فالزاهد الحقيقي هو الذي يعيش كما وهبه الله من أسباب الحياة دون التعلق النفسي برغائب الدنيا والتي تشغل القلب عن الهدف الذي خلق الله الإنسان من أجله، فالزهد ينير القلوب والعقل ويقرب الإنسان من ربه ويقصر أمله في رغائب الدنيا(١).

كما حث النبي ﷺ على الرغبة في الزهد والنظر إلى الدنيا نظر زائر فيها بقوله ﷺ من حديث عبدالله بن مسعود: «مالي وللدنيا، مثلي ومثلها كمثل راكب قَالَ(٢) في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها» صدق رسول الله ﷺ(٣). «ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

فإجماع القرآن والسنة على الابتعاد عن حب الدنيا وملذاتها للحفاظ على الإنسان ومهمته التي خلقه الله من أجلها، يقول عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وليس معنى التزهد في الدنيا والبعد عن المحرمات وما فيه شبهات الابتعاد عن الحياة الاجتماعية والتمتع بها وبما أنعم الله علينا من نعم في حدود ما يسمح به الشرع، ولكن المعنى المقصود، ألا يكون الإنسان أسيرًا لشهواته ورغباته وأن يستثمر ما آتاه الله في صلاح دنياه، ليفوز في آخراه، فالله عز وجل يريد من الخلق أن يعمروها وفق المنهج الرباني الذي بَيَّنه لهم على لسان رسله وأنبيائه وجعل مدة وجودنا في الدنيا محدودة، فَلْنَجِدّ فيها ونجتهد ليكون لنا رصيدًا نعيش به في دار الخلود.

---

(١) السابق نفسه.

(٢) قَالَ من القيلولة، وهي الراحة وقت الظهر.

(٣) مسند الإمام أحمد وكذلك أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح.

والمقصود بالإعراض عن جميع المحرمات والشبهات وتركها، وليس معناه عدم امتلاكك لشيء، بل أن تملك الشيء ولا يَمْلِكُكَ، فتأخذ من حاجتك الحياتية دون التعلق بالأشياء، لأنها وسائل خلقها الله لتكون عوناً للعبد على طاعته وتَعَبُّدُه لله الواحد الأحد ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فالزهد يهذِّب النفس من جميع الرذائل والصفات الأخلاقية المذمومة ويوجد ويوجهها نحو الأخلاق الحميدة لتنال درجة القرب من الله ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

والزهد رياضة روحية تهذب النفس وتروضها وتطهر القلب والتحلي بها قد تكون سببًا في الحصول على سلعة الله الغالية [الجنة]. فاللهم أكرمنا بالتخلق بخلق الزاهدين واجعلنا ممن يقال لهم يا باغي الخير أَقبِلَ. فاللهم حصن قلوبنا وزدها صفاء واملئها بمشاعر حبك وتعظيمك ومخافتك وقوة اليقين فيما عندك. واجعلنا ممن صدق فيه قول رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

ومما يساعدنا على تحقيق الزهد الذي يحقق لنا عن طريق التصوف حُب النبي ﷺ، ومن علامات حب النبي:

- اقتفاء أثره ﷺ.
- الاقتداء والحرص على سنته والتأدب بآداب العسر واليسر.
- حب الصحابة وحب آل البيت.

(١) رواه مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

• **خلاصة الزهد:**

نستخلص مما سبق أن الزهد له علامات منها:

١) ألا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [سورة الحديد: ٢٢].

٢) أن يستوي عند الزاهد من يمدحه ومن يذمه، فعلاقة الزاهد في المدح (المال) وفي الذم (الجاه).

٣) أن يكون أُنْسُهُ بالله عز وجل والغالب على قلبه وحلاوة الطاعة، إذ لا يخلوا القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في الإناء، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان، وكل من أَنِسَ بِاللّهِ اشْتَغَلَ به، ولم يشتغل بغيره وقال أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين[١] ومن هذا يتضح لنا دور الزهد في نشأة التصوف، وما التصوف إلا أثر من آثار الزهد.

فقد ورد أن حركة الزهد احتفظت بطابعها الإسلامي إلى حد كبير، وقد أثبت ابن خلدون في مقدمته «فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخَلْق والإقبال على العبادة اختصوا بمواجب مدرجة لهم. وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوانات لإدراكه. وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك.

(١) الرسالة القشيرية في علم التصوف، أبي القاسم عبد الكريم بن هواز بن القشيري النيسابوري، تحقيق مصطفى زريق، ص ١١٨، ١١٩.

فالمعنى العاقل والمنصرف في البدن ينشأ من إدراكات وإرادات أحوال المرأة والرجل فهما الدعامتان الأساسيتان اللتان خلقهما الله سبحانه وتعالى ليكوّنا المجتمع، ولن يقوم هذا المجتمع ولن ترفع هامته إن لم يكن واقفًا على دعامتين بالشكل الصحيح وبالقوة نفسها».

وبمرور الوقت لم تخل مدينة من المدن الإسلامية الكبرى من الميول إلى التصوف، فنشأت في مختلف العواصم الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني الهجريين بعض مراكز الزهد التي أطلق عليها فيما بعد (مدارس الزهد) وأبرز هذه المدارس هي (مدرسة المدينة – مدرسة البصرة – مدرسة خراسان) وقد كان اهتمام بعض الزُّهاد الأولية يدور في الأغلب حول فكرة الموت ويوم الحساب ومصيرهم بعد الموت من نعيم الجنة أو عذاب جهنم، لذا اتجهوا إلى ممارسة حياة دينية جادة مع الحفاظ على أدق أحكام الشريعة، بل إلى الزيادة في النوافل والأعمال الصالحة وعلى أساس ذلك أقبل الزهاد على حياة الزهد والورع، والسيدة رابعة العدوية البصرية من بين هؤلاء وهي من مدرسة البصرة (٧١٥- ٨٠١م)[١].

لا جرم أن الباحث إذا أراد أن يبحث في المرأة العربية أو المسلمة يجد عقبة كأداء لا يذللها إلا إذا مكث رِدْحًا من الزمن منقبًا في بطون الأسفار – المطبوعة والمخطوطة، لعله يظهر بطلبته ويدرك حاجته، وليس ذلك سلس المطلب سهل المرام لكل من طلب ذلك، بل لا بد له أن يتجشم في بحثه مشقة هو في غنية عنها، إذا رجع إلى أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام الذي أقدمه لمن يقصده، عسى أن يكون لهم مرشد في بحثهم ومعينًا يخفف بعض العناء الذي يصادفونه خلال الدرس والتنقيب.

(١) حركة الزهد ونشأة المصطلحات الصوفية، د/ أحمد حسن، ص٩٣، إحياء علوم الدين، للإمام أبو حامد الغزالي، ٣٧/١، وانظر مدخل إلى التصوف، أبو الوفا التفتازاني، ص٧٧.

وقد حاولت جهد استطاعتي في البحث والتفتيش عن أكبر عدد يمكنني جمعه من شهادات النساء اللاتي خلدن في مجتمعي العرب الإسلامي أثرًا بارزًا في العلم والحضارات والأدب والفن والبر والإحسان والدين والصلاح والزهد والورع فيما يميط اللثام عن الأدوار المختلفة التي قضتها المرأة في تاريخ العرب والإسلام برهنت على خدمة جليلة للحضارة العربية ومحبة صادقة لنشر آثار العرب والإسلام.

التصوف النسائي ودوره في بناء الوعي الرشيد:

لقد تغنّت رابعة العدوية (١٨٥هـ) بالحب الإلهي ورضا المحبوب، بل إنها – كما يذكر النشار – تقول: «من أحب الله أَنِس، ومن أَنِس طرب، ومن طرب اشتاق، ومن اشتاق ولِه، ومن ولِه خرم، ومن خرم وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل عرف، ومن عرف قرب، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان»(١).

ووصلت رابعة العدوية إلى مرتبة المعلم الروحي الكبير لشخصيات وأعلام يأتي في مقدمتهم سفيان الثوري، الذي كان يحب دومًا زياراتها والتردد عليها، ويذكر جعفر بن سليمان أن سفيان الثوري أخذ بيده، وقال له: سر إلى المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها، فلما دخلا عليها قال سفيان: اللهم إني أسألك السلامة، فبكت رابعة. فقال لها سفيان: ما يبكيك؟ قالت: أنت عرضتني للبكاء. فقال لها: وكيف؟ قالت: أما علمت أن السلامة ترك ما فيها، فكيف وأنت متطلخ بها».

ومما قالته له: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم؛ ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل.

---

(١) ٣/٢٠٠. وقارن: التفكير فريضة إسلامية، د. محمود عباس العقاد، ص١٠٢.

ولم تكن رابعة العدوية الوحيدة التي نادت بفكرة الحُبّ الإلهي بل غيرها الكثيرات ممن اعتبرهن المؤرخات من السلف الصالح من هؤلاء شعرانة الفارسية التي أنشدت الحب الإلهي قبل رابعة، وعبيدة بنت أبي كلاب وهي من كبار العابدات بالبصرة، وكذلك عقيرة العابدة المشهورة، ومن خادمات رابعة اللائي اشتهرن: عبيدة بنت أبي شوال، ومريم البصرية التي كانت إذا سمعت علوم المحبة طاشت، ويذكر ابن الجوزي أنها حضرت بعض المذكرين، فتكلم في المحبة فماتت في المجلس.

وهكذا شهد التصوف في تلك الآونة كثيرًا من الشخصيات النسائية المتصوفة التي أثرت في الحياة الروحية في الأجيال المتتابعة من تلك الشخصيات التي نوردها هنا شخصية "حبيبة العدوية" تقوم على سطح منزلها وتشير عليها درعها وخمارها في الليل وتقول: «إلهي غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وبابك مفتوح، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك».

فإذا كان السَحَر، أخذت تردد: «اللهم وهذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري هل قبلت مني ليلتي، فأهني، أم رددتها على فأعزَّني، فوعزتك لهذا دأبي، ودأبك أبدًا، لو انتهزتني ما برحت من بابك، ولا وقع في قلب غير جودك وكرمك»[1].

نماذج للمتصوفات من القرن الثاني إلى القرن السابع الهجري:

- **آسية بنت أحمد بن عبد الدائم بن نعمة:**

محدثة مقرئة كان بيتها معمورًا بالتلاوة والدرس وأجازها لها أبو الفخر أسعد بن سعد وزاهر الثقفي وعمر بن طيرزد وسمع منها جماعة توفيت ٦٨٧هـ.

(١) صفة الصفوة، جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق الشيخ: خالد طرطوسي، الناشر: دار الكتاب العربي، ٢٠/٤.

- **آسية بن إسماعيل الأعظمي:**

من ربات البر والإحسان وقفت ربعًا إلَّا عشرًا من جميع بستان الحاج رجب في قصبة الإمام الأعظم على نفسها ومن بعدها على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وطلبة العلم وجعلت التولية إلى محمد أمين الواعظ الأعظمي، وشرطت في التولية أن يقرأ على قبرها كل يوم جزء من القرآن بمقابل مالي يدوم له ولمن بعده في الوقفية ت١٢٥٧هـ[١].

- **آسية بنت محمد:**

من ربات البر والإحسان وقفت الدكاكين الثلاثة الواقعة في سوق خرطوم القتل ببغداد على قراءة القرآن الكريم ببغداد بموجب العريضة المؤرخة ١٢٧٥هـ.

- **آمنة بن رفاعي**

من ربات البر والإحسان وقفت الدار الواقعة في الغراشيم المسماه اليوم عجلة الدشتى وباب الأغا على الفقراء المستحقين بموجب الوقيفة المؤرخة ١٢٤٦هـ وتوفت ١٢٥٧هـ ودفنت في نصرة الإمام الأعظم[٢].

- **آمنة الرملية:**

من عابدات القرن الثالث الهجري انقطعت للتبتل فكان أكثر زهاد زمانها يترددون عليها ويتبركون بها.

- **حسنة العابدة:**

عابدة من عابدات البصرة هجرت نعيم الدنيا وأقبلت على العبادة فكانت تقوم النهار وتحيي الليل وليس في بيتها شيء، وحكي أنها عطشت فخرجت إلى النهر

(١) البغداديون أخبارهم ومجالسهم، لإبراهيم الدروبي.
(٢) السابق نفسه.

فشربت بكفيها، وكانت جميلة، فقالت لها امرأة تزوجي فقالت: هات رجلًا زاهدًا لا يكتفي من أمر الدنيا شيئًا وما أظنك تقدرين عليه، فوالله ما في نفسي أن أعبد الدنيا ولا أنعم من رجال الدنيا، فإن وجدت رجلًا يبكي ويبكيني ويصوم ويأمرني ويتصدق نعمت وإلا فعلى الرجال السلام(١).

وما روي عن ابن عمر ﷺ قال: «وجد عمر ابن الخطاب معاذ بن جبل ﷺ قاعد يمين قبر رسول الله ﷺ يبكي. فقال: ما يبكيك؟ قال: يبكيني شيء سمعته من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن يسير الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة»(٢).

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانتهم من الله عز وجل» فقال رجل: من هم وما أعمالهم؟ لعلنا نجهم قال: «قوم يتجابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها بينهم والله إن وجوهم لنور وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا أخاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

- **رابعة بن إسماعيل العدوية البصرية:**

المكناة بأم الخير، ولدت في مدينة البصرة ويرجح مولدها حوالي عام (١٠٠هـ – ٧١٧م) من أب عابد فقير وهي ابنته الرابعة، وهذا يفسر سبب تسميتها رابعة فهي البنت الرابعة، وهي من عشيرة القيسيون ومنهم رباح القيسي وجبان القيسي وهم من نسبها إليهم الجاحظ والذين كان له دورًا هامًا في حياة رابعة وبالرغم من كثرة التراجم التي نصت عن رابعة. إلا أن هناك خلط بينها

(١) صفوة الصفوة، لابن الجوزي، ص٣٢٥ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري ٦٥٠٢، وانظر: مجموعة الفتاوى لابن تيمية، ج٣١٦/٢٥.

وبين سميات لها مثل رابعة بنت إسماعيل زوجة أحمد بن أبي الحواري وكذلك كان كل من الشعراوي وابن الجوزي يميزونها باسم رابعة العدوية البصرية عن الأخرى الشامية أم إبراهيم العابدة – عابدة من عابدات البصرة(١).

• **أزدة بنت الحارث بن كلدة (في الثامن الهجري):**

مجاهدة خاضت ساعات الوعي بكل بسالة ورباطة وجأش وحازت النصر المبين على الأعداد، فقد ذكر المؤرخون أنه أجمع أهل ميسان(٢)، للمسلمين وعليهم الفليكان، فلقيهم المغيرة بن شعبة بالمرغاب(٣)، وقد خلف العدو دون دجلة، فقالت أزردة بنت الحارث: إن رجالنا في نحر العدو ونحن خلوف ولا آمن أن يخالفوا إلينا وليس عندنا من يمنعنا، وأخرى أخاف أن يكثر العدو على المسلمين فيهزمونهم فلو خرجنا لأمنَّا مما نخاف من مخالفة العدو إلينا، ويظن المشركون أنَّا عَدَدٌ، ومَدَدٌ قد أتى المسلمين فيكسرهم ذلك فهي مكيدة. فأجبنها إلى ما رأت فاعتقدت لواء من خمارها واتخذت النساء رايات من خمرهم ومضين وهي أمامهن – فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا أن عداد أتى المسلمين فانكشفوا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عِدَّة(٤).

وكما نرى أن الخطاب الديني القديم والمعاصر يقوم على تمجيد الرجال الذين كان لهم دورٌ بارزٌ في صياغة التراث الإسلامي من علماء ومشايخ وعارفين بالله ودون الخوض في إسهامات النساء باعتبارهن عارفات وشيخات ومربيات خليلات، فلم يُحَرِّم الله على المرأة إلى جزع والعلم والتنوير والترقي في مدارج الأخلاق والصفاء.

---

(١) صفوة الصفوة، لابن الجوزي، ص٣٤٠ وما بعدها.

(٢) ميسان: كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط.

(٣) المرغاب: نهر بالبصيرة.

(٤) تاريخ الطبري، معجم البلدان، الياقوت، بلاغات النساء، لابن طيفور ص١٣.

فحتى في سياق الخطاب الصوفي المعاصر لا نَكَادُ نجد أثرًا أو ذكرًا أو إشارة إلى عارف بالله بلغن في مراتب المراقبة والخشية والصلاح والورع والتزكية، ما بلغ بها كبار شيوخ الصوفية، بالرغم من وجود ذلك في الواقع، فسيدنا الشيخ حسن البصيري كان وما يزال نموذجًا أخلاقيًا رفيعًا في التواضع والخشية والزهد تلقى علومه وآدابه وأخلاقه عبر صحبة مربيتهم العارفة بالله رابعة العدوية.

لكن ما نعيشه أن سيكولوجية التراث الأبوية المهيمنة على الفكر التقليدي، وطبيعة العامل النفسي والعرفي والثقافي للفرد والمجتمع العربي والإسلامي شكَّل حاجزًا أمام الاعتراف بمقام المرأة.

دورها البارز في ترسيخ الدين الإسلامي ونشر القيم الروحية وإرساء مفاهيم تربوية وجمالية وأخلاقية عديدة.

شهد التاريخ الإسلامي العديد من النساء اللواتي ارتقين مدارج الكمال والمعرفة الربانية والفتوحات الرحمانية، فقد أرست السيدة رابعة العدوية أشهر المذاهب الصوفية ألا وهي الحب الإلهي الذي يقوم في جوهره على إخلاص القلب والقالب لله وحده بعيدًا عن الخوف من النار والطمع في الجنة.

وجعلت معتمدة عليك توكلًا * وبسطت كفي سائلًا أتضرع**

أجعل لنا من كل ضيق مخرجًا * والطف بنا يا من إليه المرجع**

[الإمام الشافعي].

فلقد تأثر بشعرها الروحي الشيخ ابن عربي والحلاج **[من تصوف فليتصرف بهمة وكهمة أم علي أو حال كحالها]** أراد أن تسأل أبا زيد البسطامي الملقب بسلطان العارفين.

متصوفات في القرن الرابع الهجري:

يقول أبو حفص النيسابوري (٨٧٧م) ما زلت أكره حديث النسوان حتى لقيت أم علي زوجة أحمد بن خضرويه – فعلمت أن الله تعالى يجعل معرفته حيث يشاء، ويقول عنها أبو يزيد البسطامي [عائشة المكية] صحبت الفضيل عن عياض (١٨٧هـ) وهذا الخير يرويه عالم اللغة والفقيه المحدِّث وإمام من أئمة علم الجرح والتعديل هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي أنه حج في ٢١٩هـ ولما أراد مغادرة مكة المكرمة رأى رؤية تنهاه عن ذلك فعاش السنوات الخمس الأخيرة من عمره في جوار الحرم المكي، ولذا فإننا نرجح أنه التقى بالعارفة عائشة المكية خلال السنوات الخمس هذه (٢١٩هـ إلى وفاته ٢٢٤هـ).

يحكي القاسم بن سلام بقوله: «دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقي وأمد رجلي فجاءتني عائشة المكية رضي الله عنها فقالت لي يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم إقبل مني كلمة لا تجالسه إلا بأدب وإلا فيمحى اسمك من ديوان القرب»[١].

- **عائشة بنت المثنى القرطبي:**

عاشت في القرن السادس الهجري والتقى بها الشيخ ابن عربي في إشبيلية وخدمها سنتين، وكان عمرها وقت حذقها فوق خمسة وتسعين عامًا وعمره تحت العشرين.

فماذا قدَّمت هذه السيدة مع ندرة ما سجَّلهُ التاريخ عنها؟ لقد قدمت هذه السيدة إنسانًا صالحًا، لقد أبدعت وبشكل غير مسبوق لما يمكن أن نسميه (تربية العارفين) في مقابل (تربية المريدين)[٢].

---

(١) مشاهد الأسرار القدسية لابن عربي وقد شرحته السيدة عجم بنت النفيس البغدادية. وانظر كتاب شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات للنشر، الكويت، ١٩٧٨م.

(٢) الكوكب الدري لابن عربي، ص٥٠، ٢٠٦، وقارن الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٣/٤٤٠-٤٤٢، جامع كرامات الأولياء، النبهاني ٢/١٥.

• **رابعة العدوية التدين عندها معرفة الله وفقه التدين (الفناء في حب الله):**

ذكر ابن خلدون في مقدمته قوله: «ولعل ممن يمثلون زهاد المسلمين ونساكهم الحسن البصري ورابعة العدوية، فقد روى الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) من كلام الحسن البصري ما يلي: «رحم الله عبدًا كسب طيبًا وأنفق قصدًا وقدَّم فضلًا، وجَّه هذه الفضول حيث وجهها الله ووضعوها حيث أمر الله... ألا إن هذا الموت قد أخبر بالدنيا ففضحها، فلا والله ما وجد ذو لب فيها فرحًا، فإياكم وهذه السبل المتفرقة التي جماعها الضلالة وميعادها النار." أدركت من صدر هذه الأمة قومًا كانوا إذا جنهم الليل، فقاموا على أطرافهم يفترشون جذورهم تجري دموعهم على خدودهم يناجون مولاهم في نكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة سرتهم وسألوا الله أن يتقبلها منهم وإذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفر لهم. يا ابن آدم إن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس ها هنا شيء يغنيك وإن كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك يا ابن آدم لا تقل شيئًا عن الحق رياء ولا تتركه حياء»[1]. ولنتذكر قول الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] فالغالب إذن على التصوف في نشأته الأولى العبادة والزهد ومحاسبة النفس والخوف، وكل ما يولد الحب الإلهي عند المتصوف كما فعلت السيدة رابعة العدوية في قولها: «أحبك حبين حب الهوى وحبك لأنك أهل لذاك...».

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، ٤٥٣/١، وانظر صفة الصفوة للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي. وانظر ابن خلدون في مقدمته، ص٣٢٠.

• **عجم بنت النفيس البغدادية، من متصوفات القرن السابع الهجري:**

التصوف الذي يخضع لضوابط القرآن والسنة النبوية يقي من حجاب كبر الإنسان وعناده والركون إلى عصبيته، وبالتالي يأخذ نفسه بزاد دائم من ذكر الله سبحانه وتعالى، فلم يجد بينه وبين الله أيّ حجاب يصده عن معرفته وشهوده.

• **ميمونة، أخت إبراهيم الخواص:**

سمعت محمد بن عبد الله، يقول: سمعت أبا الخير الأقطع، يقول: دخل إبراهيم الخواص على أخته ميمونة – وكانت أخته لأمه – وقال لها: إني اليوم ضيق الصدر. فقالت: من ضاق قلبه ضاقت عليه الدنيا بما فيها، ألا ترى أنَّ الله تعالى يقول: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ [التوبة: ١١٨]، لقد كان لهم في الأرض متسع، ولكن لمَّا ضاقت عليهم أنفسهم ضاقت عليهم الدنيا بما فيها.

• **أم أحمد بنت عائشة بنت أبي عثمان:**

لزمت البيت خمسين سنة، لم تخرج من بيتها. وكانت واحدة وقتها، همةً وحالًا وخُلُقًا. سمعتها تقول: العلم حياة الخلق، والعمل مطيته، والعقل زينته، والمعرفة نوره وبصيرته. وقالت: الأفعال كلها معيوبة، ولا يعرف عيوب نفسه إلَّا المبرءون من العيوب. وقالت: من رضي بعيوب نفسه ولم يداوها بدوائها أورثه الله الدعاوى الباطلة.

• **عونة النيسابورية:**

كانت زاهدة صفيقة، كثير المجاهدات. كان يقال: إنها مُجابة الدعوة. سمعت أبنا أحمد الحسنوي، يقول: سمعت عونة تقول: أنا أتوب من صلاتي وصيامي، كما يتوب الزاني من زناه، والسارق من سرقته.

• **أمة العزيز، المعروفة بهورة:**

كانت إحدى الصوفيات والعارفات، وأرباب الأحوال. وكانت من أفتى وقتها في النسوان. سمعت أبا نصر بن أبي إسحاق بن أبي بشر بن مارويه، يقول:

دخلت امرأة عليها، وعليها جبة صوفٍ وقميص صوف، فقالت لها: من لبس الصوف يجب أن يكون أصفى الناس وقتًا، وأحسن الناس خُلُقًا، وأكرم الخلق حركة، وأعذب الناس طبعًا، وأجودهم نفسًا، وأسخاهم يدًا، كما تميز عن الخلق بلباسه، كذلك يتميز عنهم بأوصافه.

- **الوهيطة، أم الفضل:**

كانت واحدة وقتها، لسانًا وعلمًا وحالًا. صحبت أكثر مشايخ الوقت. ورحلت في آخر عمرها إلى الشيخ أبي عبد الله بن خفيف. ودخلت نيسابور، ولقيت بها أبا عمرو بن نجيد، والنصراباذي.

وكان الشيخ الإمام أبو سهل محمد بن سليمان – رحمه الله – يحضرها ويسمع كلامها، وكذلك جماعة مشايخ الفقراء، مثل أبي القاسم الرازي، ومحمد الفراء، وعبد الله المعلم، ومن في طبقتهم.

سمعت الوهيطة تقول: احذروا ألا يكون شغلكم طلب راحات النفوس وتوهمون أنكم في طلب العلم، وطالب العلم هو العامل به وليس العمل بالعلم كثرة الصوم والصدقة والصلاة، وإنما العمل بالعلم إخلاص العمل لله، بصحة النية، ومراقبة نظر الله تعالى إليه، إن لم يكن هو ناظرًا إلى ربه، ومشاهدًا له.

وسمعتها تقول: من آلة الصوفي المتحقق ألا يطلب، ولا يتشرف إليَّ شيء، ولا يرد فتوحًا، إذا كان من وجهٍ غير متهم، ويدخر من وقت إلى وقت، أو لوقت.

وسمعتها تقول: لا يكون لصاحب حقيقةٍ رجوع إلى الأحوال بعد التحقق، بل تكون الحوال كلها تبعًا له.

وسمعتها تقول: حقيقة المحبة أن يخرس المحب إلا عن محبوبه، ويصم إلَّا عن سماع كلامه، كما قال النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم».

سمعت الثقة يحكي عنها، قال: سألتها عن التصوف، فقالت: نقص الأسباب وقطع العلائق.

- **ملكة بنت أحمد بن حيويه:**

امرأة الحسن بن علي بن حيويه، وبنت عمه. كان أبوها رئيس دامغان. وكانت صاحبة حال. حملها زوجها الحسن إلى الحج، وأدخلها على الشبلي. فلما رآها الشبلي قال للحسن، أنت رجل وهذه امرأة، لكنها أكبر منك حالًا.

قال الحسن: فلم يدخل ذلك في قلبي، حتى دخلنا مدينة الرسول ﷺ. قال: وكان معها دريهمات من نفقته، لم يبق لنا غيرها. فرأت قومًا من السودان قعودًا عند رأس النبي ﷺ، فنثرت عليهم تلك الدراهم. فكلمتها في ذلك مرتين، وقلت لها: كان يكفي لأولئك السودان بعض ذلك، أو أقل من ذلك! فقال لي: إلى متى تقول يا حسن؟ كأنك لم تر غير السودان!.

- **فاطمة بنت عمران:**

من أهل دامغان، كانت كبيرة الحال، شديدة الوجد، كثيرة الاجتهاد. صحبت أبا عبد الله الزاهد، بدامغان. سمعت علي بن محمد، يقول: سمعت الحسن بن علي، يقول: قدم علينا أبو محمد الموصلي، فلقى فاطمة، فقال: هذه رابعة وقتها. وكانت مستجابة الدعوة، مقيمة على تعهد الفقراء والغرباء، إلى أن ماتت، رحمها الله.

كيفية توظيف التصوف النسائي في المجتمع الإسلامي لبناء وعي رشيد:

ولنأخذ من حكم ابن عطاء الله السكندري حكمته السابعة عشر ونصها: «ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه»[(١)]. فالوقت هو المجال الزمني الذي قضى الله تعالى أن تظهر فيه أنشطة الناس وأعمالهم.

---

(١) الكوكب الدري لابن عربي (٢٠٥، ٢٠٦)، صفة الصفوة، ط٣، ١٩٨٥. البداية والنهاية لابن كثير، ٧٢/١٤، أعلام النساء، عمر رضا كحالة، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٤٤٠ – ٤٤٢، النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ص١٥١٢.

وقد خاطب الله تعالى الناس جميعًا بأوامره ووصاياه التي كلفهم بها مع النواهي عن المفاسد التي حذرهم من الوقوع فيها. فذلك هو الجامع المشترك الذي يجب أن يلتقي الناس جميعًا في كل زمان وفي كل مكان.

ثم إنه تركهم جميعًا لاختياراتهم فيما يفضلونه من الوظائف والصناعات والتجارات والعلوم والمعارف الكثيرة المتنوعة. ويَسَّر لكل منهم الأنشطة والأعمال التي شاء الله أن يوجهه إليها وأن يلهمه إياها. ولله عز وجل في توزيع هذه الأنشطة والوظائف أو توزيعهم عليها، حكمة باهرة لا تخفى على عاقل، فإن الأرض التي أنشأنا الله عليها وأقام لنا فيها مفاتيح المعايش وأسباب الحياة الرغيدة. لا بد من عمارتها بالمعنى المادي والحضاري، ولا تتم عمارتها إلا بتعاون الجنسين الذكر والأنثى كل على حسب ما هيأه الله له.

فالبناء المجتمعي لا يكون إلا بالتقاسم فيما بينهم أنواع الوظائف والأنشطة والأعمال التي بها تتحقق عمارة الأرض، فكان من لطف الله وعظيم إحسانه أن قَسَّم بينهم هذه الأنشطة والوظائف بسائق من الإلهام والرغبة وانشراح الصدر.

ولم يدفع كلًا منهم إلى ما شاء له منها بدافع الجبر والإلزام، إذن فهو أمر ديني مشروع أن تجد الناس رجالًا ونساءً في أيّ مجتمع من المجتمعات قد توازعتهم هذه الوظائف والأعمال المختلفة على أن ينطلقوا إليها بعد الالتقاء والاجتماع على جانب مشترك فيما بينهم، وهذا الاستجابة لتعاليم الله: أوامره، نواهيه وصاياه، والتحقق بهوياتهم عبيدًا مملوكين لله حرصين على مراقبة الله عز وجل فيما أسند إليهم.

ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان من الصحابة –رضوان الله عليهم– منهم من يشهد مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر ثم يذهب بعد ذلك إلى أرض له يزرعها والعمل فيها، ومنهم من يذهب إلى صناعة له يتقنها ويقوم عليها، ومنهم من يذهب إلى تجارته يجد ويعمل بها.

وعلى الجانب الآخر كان من الصحابة من ينقطع عن الدنيا فيلازم رسول الله في كل شئونه وتقلباته لِيَسْمع منه فيحفظ عنه أو لينَقطع للأذكار والعبادات في المسجد كأهل الصفة، ولم يكن رسول الله ﷺ ينكر على أيّ منهم شأنه وعمله الذي اختاره لنفسه، فالكل ينطلق إلى عمله من جامع مشترك هو أداء حقوق الله. والالتزام بما يوصيهم النبي ﷺ.

ولا شك أن أعمالهم المتنوعة التي كانوا يتفرقون إليها كانت مصبوغة هي الأخرى بصبغة الإقبال على الله والتقرب إليه والتطلع إلى مرضاته.

فما ينشده ابن عطاء الله في حكمته التنوع في الأعمال رجالًا ونساءً تحت سلطان الدين وحكمه وبقصد يهدف إلى مرضاة الله وتنفيذ أوامره وهذا واضح في قوله رضي الله عنه: «تنوعت أجناس الأعمال بقدر تنوع واردات الأحوال»(١).

ويرجع هذا التنوع إلى تنفيذ الوصية الإلهية الواردة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] فبهذا تكون الأعمال المتنوعة جزءًا أساسيًا داخلًا في قوام الدين، ولا يتحقق ذلك إلا بجامع مشترك من الطاعات والقربات والأذكار والالتزام بوصايا الله وأحكامه.

ينطلق منها أصحاب تلك الوظائف الدنيوية المختلفة من هذا يتضح لنا أنه ليس في دين الله ما يمنع المسلمين من أن ينشطوا في بناء المجتمع الإنساني وترسيخ الدعائم الحضارية في جنباته، بل هو واجبهم الذي خاطبهم الله به.

وهذا ما نهض به الرعيل الأول في صدر الإسلام، فالانطلاق من (الجامع المشترك) رجلًا أو امرأة – وهو الوقوف على مرآة الذات والتشبع بمعرفة الهوية الإنسانية ثم معرفة حق الله تعالى على العبد والعمل الجاد على أدائه مع

(١) الحكم العطائية، لابن عطاء الله السكندري، ص٢٢١.

الانضباط بجميع الأوامر للوصايا التي شرف الله بها الإنسان إذ خاطبه وكلفه به ليصل به إلى التربية وتزكية النفس ودوام مراقبة الله عز وجل[١] ونحن إذا تأمنا حال الصالحين والصالحات الذي جاءوا بعد رسول الله ﷺ ممن التزموا هدية وساروا على سننه، وشهد لهم السلف الصالح بالاستقامة والتقوى. نجد أنهم كلما ازدادوا معرفة لله وقربًا منه ازدادت نفوسهم لديه ضآلة وظهر لهم المزيد من سوء حالهم، فتضاعفت الخشية منه في نفوسهم والتعظيم له في قلوبهم.

فها هو ابن المبارك كان حاجًا فاستقى من زمزم دلوًا وقال اللهم إن رسول الله ﷺ قال: «ماء زمزم لما شربت له، اللهم إني أشربه لعطش يوم القيامة فشرب منه ما شاء الله أن يشرب» فقد نسي رغبات الدنيا واستغرق في هَمِّ الآخرة ووجد نفسه مجردًا داعم الأمل بأي عمل يستأهل به مثوبة الله عز وجل ولذى من متصوفة النساء.

المفهوم الإنساني للشعور الروحي لحالة الإنسان (الوعي – الإدراك – الشعور – الوجدان)، وهو ما من شأنه أن يساعده أن يخلق به العوالم الروحية بعد أن يتم بقوانين العقل والروح أو العقل والنفس.

عرف الإنسان الحالة الصوفية من القدم، وصورها بأشكال مختلفة طبقًا للزمان والمكان، فالله خلق البشر وأودعهم نعمة الوعي والإدراك والشعور والوجدان، أو ما يمكن أن تعبر عنه بكلمة واحدة هي (الفطرة)[٢].

ومن أشهر المصطلحات الصوفية التي ورت عن السيدة رابعة، والتي نحتاجها بشدة في البناء المجتمع المتوازن:

---

(١) تاريخ ابن عساكر، ١٩١١٤، تاريخ بغداد، ١٦٦/١٠.

(٢) الإسلام والأديان في اليابان، أ.د/ سمير عبد الحميد نوح، أستاذ زائر بجامعة دوشيشاكيوتو، اليابان.

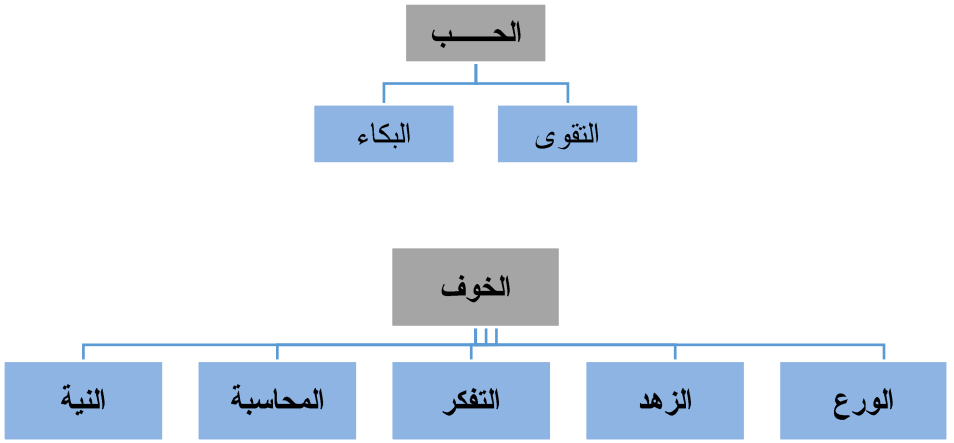

يقول زكي مبارك (التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق): «التصوف فطرة إنسانية توجد في التراث الإنساني عبر التاريخ فهو رؤية معرفية تنزع إلى ملامسة الحقائق العميقة في الكون فالمتصوف ينظر إلى الكون بعين القلب».

تركز هذه الرؤية المعرفية على المعاني الذاتية والباطنية للأشياء وتتعلق على قواعد الإدراك الحسي والاستدلال الاستقرائي.

لعلنا بعد الجولة المحدودة حول التصوف والتخلُّق به حتى يصبح هو فطرتنا وسجيتنا في التعامل قولًا وفعلًا وعملًا، فيصبح الصالح مُصلحًا ينشر الأخلاق لننهض بأمتنا وليعضد بعضنا بعضًا لنحقق قضية إعمار الأرض معًا رجالًا ونساءً.

أهم النتائج والتوصيات

أولاً: النتائج:

وهناك أهم النتائج:

١- هدف التصوف الإسلامي تحصين الإنسان بقيم روحية تعينه على مواجهة الحياة المادية وما فيها من ألوان الصراع العقائدي المختلفة وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشاكلها.

٢- التصوف جزء لا يتجزأ من التراث العربي الإسلامي من رواد الإصلاح الديني في العصر الحديث الشيخ محمد عبده، يقول الشيخ محمد عبده: «إنه لم يوجد في أمة من الأمم من يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتربية النفوس وأنه بضعف هذه الطبقة فقدنا الدين».

٣- يسعى التصوف في كل مراحله التاريخي إلى الإصلاح المجتمعي وذلك بنشر الوعي الديني الصحيح المعتدل كرابط لتحقيق علاقة الإنسان بدينه وبخالقه.

٤- التصوف المُعتمد على التدبر القرآني يساعد على الولوج من الظاهر إلى الباطن، كما يساعد على توسيع المدارك وتعدد مصادر المعرفة، وبهذا نحقق نهضة الأمة.

٥- تميز القرن الثاني الهجري في نصفه الثاني بانتشار واسع للتصوف وبرزت من النساء المتصوفات اللاتي وضعن بصمتهن في تاريخ التصوف في الإسلام، وذلك لأنهن كُنَّ يلتزمن بمبدأ الاستقامة التي تقوي العزم على الزهد في الدنيا والخروج من دواعي الهوى فقوة العزم في إرضاء الله واتباع سنة الحبيب ﷺ جعلهن طالبات استقامة لا طالبات كرامة.

٦- التصوف النسائي هدف وبُعد من أبعاد النهضة بالأمة.

٧- التصوف النسائي من ثمراته العمل الإيجابي البنّاء والذي تعتمد في بنائه على القيم القرآنية العُليا.

٨- أهمية التربية الروحية في الارتقاء بالوجدانيات التي تساعد الصوفي في الارتقاء والترقي.

٩- مهما تعددت لغة المتصوفين فالهدف الرئيسي الصلة بالله بالدلالات اللغوية المختلفة والمتعددة.

١٠- تعتمد المصطلحات الصوفية في جُلّها على المجازات والاستعارات.

١١- بالاستقراء في لغة التصوف والمتصوفين وجدنا أنها لغة إشارات تحمل الكثير من الإيحاءات التي تؤدي إلى الغموض؛ لأن العبارة الواضحة قاصرة على نقل تجاربهم الروحية.

١٢- يقول ابن عربي: «عن الكلام عبارات وألفاظ قد تندب إشارات وإيماء، ويقول أبو العباس أحمد بن عطاء:

إذا أهـــل العبـــارة ســـاءلونا * أجبنـــاهم بـــأعلام الإشـــارة**

نشير بهـــا فنجعلهـــا غموضًـــا * تقـــصـــر عن ترجمته العبارة**

١٣- السيدة الرابعة في كلامها تدعو إلى صرف النظر عن الظاهر إلى الباطن؛ لما يحمله الرمز الصوفي من دلالات لا سبيل إلى إدراكها بالحواس بل بالكشف والذوق والتأمل الوجداني. ينتقل المتلقي عن عالم المادة إلى عالم الروح، حيث يتخلص المتلقي من سجن الجسد الحسي وتتجلى له روح الأشياء وبواطنها؛ لذا فإن الرمز اللغوي لم يعد سرًا عند المريد.

١٤- العقل يحول بين الصوفي وبين تذوقه للدلالات الروحية الباطنية، وكذلك العبارة تخون تلك الدلالات؛ لأنها تستر هذه التجربة وتحجبها فيما هي تريد الإفصاح والتعبير عنها، ومن عباراتهم «يقوم نحو القلب بمح تسلط العقل»، لغة ذوق وأحوال لا لغة عقل وجدال.

١٥- من الحقائق القرآنية التي اعتمد عليها التصوف (التربية الروحية) والتي يحثّ عليها تزكية النفس ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، والتي تُعد هي أول طريق الصوفي الصحيح

١٦- إيجابيات التصوف وسلبياته ووضع خارطة طريق لدور التصوف النسائي في نهضة الأمة في بناء الحضارة الإنسانية، وذلك بتهيئة وعي رشيد يعيننا على تحقيق ذلك.

١٧- نؤكد دور التصوف بصفة كونه قوة ناعمة للإسلام تستطيع أن تنشر الإسلام بالحسنى والخلق في أقطار الأرض.

١٨- تغييب دور العقل وتجاوز الشريعة مرفوضان في التصوف، الحب الأعظم، النساء والصوفية.

١٩- عند استقرائنا لما ورد عن النساء المتصوفات وعن طرق التعبير والتواصل مع الله أدركنا الفتوحات الربانية التي انعكست في لغتهم ومناجاتهم.

٢٠- اشتهرت لغة التصوف النسائي بما تميز به من غموض وإيثار الرموز للدلالة على المعاني دون التصريح به؛ لاعتمادها على معرفة الأساس الروحي الذي قامت عليه.

٢١- تميَّز التصوف السُّني من غيره من ألوان التصوف الأخرى.

٢٢- هدف التصوف السني الفلسفي تحقيق السعادة، وإن اختلفت الطريقة في كل منهما، فالسفلة تصطبغ التأمل والنظر العقلي الذي يسلم إلى الفيض والإلهام، وأما التصوف السُّني فإنه يغلب العمل على النظر ويقدم التعبد على التأمل للأخذ في الأصل بالتجربة الروحية التي تقوم على التقشُّف والزهد.

٢٣- وقف التصوف الإسلامي موقفًا متحضرًا من المرأة ونظرة (أهل الله) من زاوية المرأة المسلمة الصالحة العابدة ساعدها في دفع طاقتها الروحية لمواكبة حركة الحياة الدعوية، فلِمَ علم التصوف والأحوال علمًا خاصًا بالرجال دون النساء فقد أضافت النساء إلى علم التصوف قدرًا وافرًا من المعرفة من أقوال (أهل الله) وتجلياتهم جاءت على لسان كثير من العبادات الصوفيات، وتحدثنا كتب الزهد والتصوف والعبادة عن صحابيات صادقات وعابدات صابرات ومصلحات كريمات، ولعل السيدة رابعة هي خير مثال على التصوف عند المرأة، ودورها وتأثيرها في المجتمع، ومن هنا وصفها ابن خلكان قائلًا: «كانت رابعة العدوية من أعيان عصرها وأخبارها في الصلاح والعبادة والعلم لا تخفى على منصف، وليس أدل على مكانتها ما نقل أن سفيان الثوري مع ما عرف عنها من الزهد والعلم، كان يجلس بين يديها ويقول لها: علمينا مما أفادك الله من طرائق الحكمة، وكانت تقول له: نِعْمَ الرجل أنت لولا أَنَّكَ تحب الدنيا، وكان يعترف ويسلم لقولها، وكانت رابعة أول من استعمل الحب الإلهي، استعمالًا صريحًا فيما تناجي به الله عز وجل، وإقبالها عليها وإيثارها له سبحانه. يقول ابن عربي: «رابعة العدوية المشهورة التي أَربت على الرجال حالًا ومقامًا»، وأيضًا فاطمة النيسابورية التي تتلمذ على يديها ذو النون المصري، وأبو زيد البسطامي. يقول ابن عربي: «لا يعرف قيمة المرأة إلا من عرف سبب وجود العالم، بل لقد ذهب الرجل مذهبًا لم يقل به من قبل أي صوفي أو فيلسوف، فالعلاقة بالمرأة تمثل تجديدًا للعلاقة مع الألوهية والطبيعة، وكل مكان لا يؤنث لا يُعَوَّل عليه.

٢٤- تجربة التصوف النسوي لم تعد تقتصر على بعدها الروحي والاتصال مع الله، بعيدًا عن الخوض في اختلاف الرؤى الصوفية والإسلامية ككل تجاه المرأة(١).

(١) النساء والتصوف خصوصية التجربة وإشكالية التاريخ، منى علام.

٢٥- صورة المرأة في التصوف الفلسفي تختلف عنها في التصوف الأخلاقي، في الأول ينظر إلى المرأة باعتبارها مبدأ الحياة الإنسانية كلها والآخر يَعُدُّها متعبدة تتمتع بسمو روحي.

٢٦- أهمية معرفة حقيقة التصوف الإسلامي بما في ذلك تأصيل مفهومه بالكتاب والسنة وبيان أشكاله ومذاهبه.

٢٧- ضرورة تعزيز معنى الاعتدال في التصوف والابتعاد به عن ما يشوه وجهه الكريم من ممارسات.

٢٨- تجديد التصوف الذي يسهم في بناء الوعي الرشيد، يحتاج إلى تصحيح الخلل الذي دخل على التصوف من الفصل بين الفقه والتصوف والتكاليف الشرعية.

٢٩- وضح لنا الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ) في كتابه (الفتح الرباني والفيض الرحماني ص ٥٧) بقوله: «ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال».

٣٠- علينا فهم المعاني التي تحملها المصطلحات على وجهها الصحيح فمقام الزهد والتوكل ليس معناه الكسل والراحة والبطالة، وهذا لا يتناسب مع بناء وعي رشيد لمن يحسن العمل بحسن طاعته والتزامه بأوامر الله ونواهيه، فالتوكل طاقة في المسلم تدفعه للخير والاجتهاد وأن الله عز وجل يدعو عباده إلى اتخاذ الأسباب والنهوض إليها تأدبًا مع سنة الله في الكون، وإلا لما قال النبي للصحابي الذي بات كالًا من عمله «يبيت مغفورًا له»، وأيضًا قوله ﷺ: «هذه يد يحبها الله ورسوله».

٣١- لا صحة لدعوى أن المتصوفة أهل الخصوصية والفتوحات والعلوم اللدنية والتجليات، وبالتالي لا حاجة لطلب العلم الشرعي للمتصوفين

والمتصوفات؛ لأن التصوف علم وعمل يستهدف سلوك المرء، وعمل يرى مشهودًا في أخلاق الناس.

٣٢- التحذير من توصيف التصوف سياسيًا من جهة ومن انزوائه بعيدًا عن الحياة من جهة أخرى.

٣٣- توكيد مساهمة المتصوفة في نشر الإسلام في أبعاده الروحية والأخلاقية في أنحاء الأرض وفي نشر تعاليمه السمحة بين الشعوب.

٣٤- توكيد الدور الحضاري المطلوب للتصوف قيامًا على ما كان من آثاره السابقة في المدنية الإسلامية وسائر المدنيات.

٣٥- توضيح أن التصوف الحقيقي هو الذي ينطلق من الكتاب والسنة والأخلاق العالية التي تمثلها الصحابة والتابعون، لا بد أن يكون تصوفًا راشدًا ومسئولًا وبناءً يُوصِلُنَا إلى السلام الذاتي للأفراد والمجتمعات والسلام الإنساني العام – ورافضًا لكل ألوان التصرف المذهبي أو الديني.

٣٦- التصوف النسائي يهدف إلى الإصلاح المجتمعي، كما يهدف بمنهجية قرآنية الإصلاح للفرد والمجتمع.

٣٧- يقوم التصوف النسائي بدور هام في الجانب الاجتماعي والسعي إلى قضاء حوائج الناس وتغيير الظواهر السلبية بين الناس كما ينشر الوئام ويهيئ المناخ البيئي للتنمية المجتمعية على منظومة أخلاقية مدارها القرآن والسنة.

٣٨- نشر القيم الروحية تجعل الإنسان قرآنًا يمشي على الأرض، من خلال تعامله بالرحمة والمحبة والحق والعدل والسلام، وبالتالي تكون الأخلاق قد قامت بدورها في بناء الوعي الرشيد.

٣٩- النظرة الإيجابية للتصوف النسائي لما يقوم به من قيم روحية تعالج الكثير من أمراض العصر الذي يعاني منها الإنسان؛ لأن أزمة الإنسان المعاصر

أزمة أخلاقية، وما جاء نبينا ﷺ إلَّا ليتمم مكارم الأخلاق، ولا تبلغ المتصوفة إلى ذلك إلَّا بالتخلي ثم التحلي.

٤٠- يقول ابن القيم في الأخلاق وأهميتها لبناء الإنسان: «واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: أن التصوف هو الخلق»(١)، كما يقول القشيري في رسالته: «التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء»(٢).

٤١- ونختتم هذه النتائج بما ذكره الشيخ الغزالي في أحيائه، وقوله: «وليعلم أهل البصائر أنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الحظرات واللحظات، وليتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الحظرات واللحظات، فمن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيام حسابه». فهل هناك آلية تفوق ذلك في بناء الوعي الرشيد؟! فلنسع لتحقيق قول الله تعالى في سورة القصص (الآية: ٧٧): ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

ثانيًا: التوصيـــــات:

١- نريد تصحيح رؤى المجتمع حول التصوف والمتصوفين والمتصوفات.

٢- الاهتمام بلغة التصوف المعتمدة على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية.

---

(١) مدارج السالكين، تحقيق: محمود حامد الفقي، ج٢، ص٣١٦.

(٢) الرسالة القشيرية، ص٢٨٠.

٣- اختيار الأساليب اللغوية التي تتناسب وجميع المستويات المجتمعية لكي يتحقق الهدف الرئيسي من التصوف وهو الإصلاح الخلقي والتربوي.

٤- الاهتمام بنشر المنهجية الصوفية القرآنية التي تحفز بناء الوعي الرشيد لإعمار الأرض.

٥- تعريف المصطلحات الصوفية والاهتمام بنشرها.

المصـــــادر والمراجـــع

- القرآن الكريم.
- سنن أبي داود، الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العلمية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- النساء والتصوف خصوصية التجربة وإشكالية القارئ، د. منى علام.
- تاريخ دمشق الكبير، أبو القاسم ابن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي.
- الإسلام والأديان في اليابان، د. سمير عبد الحميد نوح.
- الحكم العطائية، لابن عطاء الله السكندري، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، شرح وتعليق: د. رمضان البوطي.
- طبقات الصوفية، عبد الرحمن السلمي.
- الكوكب الدري في مناقب ذي النون المصري، محي الدين محمد بن عربي.
- صفوة الصفوة، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.
- أعلام النساء، عمر رضا كحالة.
- البداية والنهاية، الحفاظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: محمد محمد تامر.
- جامع كرامات الأولياء، القاضي الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني ت ١٣٥٠ه، تحقيق ومراجعة: عطوة عوض.

- الأعمال الكاملة للإمام محمدعبده، دراسة وتحقيق: محمد عمارة.
- عبقرية الإصلاح، الإمام محمد عبده، تأليف: عباس العقاد.
- التصوف في سياق النهضة من محمد عبده إلى سعيد النورسي، د. محمد حلمي عبد الوهاب.
- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ط١.
- شهيدة الحب الإلهي، عبد الرحمن بدوي، ط١.
- التصوف الإسلامي منهجًا وأسلوبًا، عبد الرحمن عميرة، ط٣.
- روضة الطالبين وعمدة السالكين، للإمام محمد أبو حامد الغزالي ت ٥٠٥هـ.
- إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد الغزالي.
- الأربعين في أصول الدين، للإمام محمد أبو حامد الغزالي، تصحيح: عبد الله عبد المجيد.
- الفتح الرباني والفيض الرحماني، الشيخ عبد القادر الجيلاني، تحقيق: أنس مهري.
- قوت القلوب، أبو طالب المكي، تحقيق وتصحيح: باسيل عيون السود.
- معجم مصطلحات الصوفية، عبد الرازق الكاشاني، تحقيق: د. عبد الخالق محمود.
- المعجم الصوفي، علي بن محمد الجرجاني.
- التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، طبعة نهضة مصر، ٢٠٠٧م.

فهـرس الموضوعـات

م	الموضوع
١	**مقدمة**
٢	**المبحث الأول: التصوف أصول ومقاصد**
٣	تعريف التصوف لغةً واصطلاحًا.
٤	بيان الأصول التي بني عليها التصوف.
٥	منهجية الوصول لتحقيق الأصول التي يبنى عليها التصوف.
٦	المقام الصوفي .. والحال.
٧	من المقامات الصوفية.
٨	التصوف والتربية الروحية.
٩	المقصود بالتربية الروحية.
١٠	هدف التربية الروحية ودورها في بناء الوعي الرشيد.
١١	مقاصد التصوف وما يلزم لتحقيقها.
١٢	**المبحث الثاني: التصوف النسائي ودوره في بناء الوعي الرشيد**
١٣	الركيزة المعرفية للصوفية.
١٤	علاقة الحُبّ بين الله وعباده في القرآن الكريم.
١٥	كيف نحقق العمل بالمعرفة القرآنية في التصوف.
١٦	أ- تزكية النفس وما تدور حوله.
١٧	ب- الزهد في زخرف الدنيا.
١٨	التصوف النسائي ودوره في بناء الوعي الرشيد

م	الموضوع

١٩ نماذج للمتصوفات من القرن الثاني إلى القرن السابع الهجري.

٢٠ كيفية توظيف التصوف النسائي في المجتمع الإسلامي لبناء وعي رشيد.

٢١ أهم النتائج والتوصيات

٢٢ المصادر والمراجع

٢٣ فهرس الموضوعات